طبعة خاصة
لجمهورية مصر العربية

الجبل الخامس

رواية

باولو كويلو

مؤلف الرائعة العالمية "الخيميائي"

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

باولو كويلهو

الجبل الخامس

رواية

ترجمة: ياسر شعبان

ميريت
للنشر والمعلومات

ترجمات

الجبل الخامس

المؤلف: باولو كويلهو

ترجمة: ياسر شعبان

المقاس: ١٣ × ١٩,٥ سم

الطبعة الأولى، ٢٠٠١

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: merit56@hotmail.com

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع ٢٠٥١ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي 7 - 59 - 5938 - 977

تعليق المؤلف:

في كتابي (الخيميائي - ساحر الصحراء) كان المضمون الرئيسي يتجلى في جملة للملك يقولها للراعي (سانتياجو): "عندما تريد شيئاً، سيشاركك الكون كله ليساعدك على إنجازه.". وأنا أؤمن بهذا من كل قلبي.

وعلى كل تتضمن محاولة المرء ليحيا قدره سلسلة مراحل تتجاوز قدرتنا على الفهم، والتي تهدف دائما إلى إعادتنا إلى الطريق الخاص بأسطورتنا الشخصية ، أو لتجعلنا نتعلم الدروس اللازمة لتحقيق قدرنا.

وأظن أنني أستطيع توضيح ما أقوله بمقارنته بمرحلة في حياتي. في ١٢ أغسطس ١٩٧٩ ذهبت للنوم بيقين وحيد: عند سن الثلاثين نجحت في تحديد طريقي للوصول بنجاح إلى القمة في مجال عملي : (مديرا لقسم التسجيل). فقد كنت أعمل كمخرج فني لمحطة C B S في البرازيل، وكنت قد دعيت إلى الولايات المتحدة للتحدث إلى أصحاب هذه الشركة الذين سيوافقون على توفير كل الصلاحيات اللازمة لإنجاز كل ما رغبت في تحقيقه بمجال عملي.

وبالطبع نحيت جانبا حلمي الكبير بأن أصبح كاتبا.

ولكن ماذا يعني كل هذا ؟ فرغم كل شئ تظل الحياة الحقيقية جد مختلفة عما تخيلته فلم يكن ثمة وسيلة للتكسب من الأدب في البرازيل.

وفى هذا المساء قررت أن أتخلى عن حلمى . فعلى المرء أن يتكيف مع الظروف المحيطة به، ويستغل كل الفوص والصلاحيات المتاحة.

وإذا اعترض قلبى، أستطيع خداعه بتأليف قصائد غنائية عندما أرغب فى ذلك، وكذلك بالكتابة من حين لاخر فى بعض الصحف والمجلات.

كنت مقتنعا بأن حياتى قد اتخذت طريقا مختلفة، ولكن كان من المثير أن ينتظرنى مستقبل باهر فى عالم الموسيقى متعددة الجنسيات.

وعندما استيقظت ، تلقيت مكالمة تليفونية من رئيسى فى العمل يخبرنى فيها أننى فصلت، وبلا أية تفسيرات.

ورغم أننى طرقت أبوابا عديدة خلال السنتين التاليتين، لم أجد وظيفة أخرى. وعندما انتهيت من كتابة الجبل الخامس ، استدعيت هذه المرحلة وغيرها من الأحداث التى لا يمكن تجنبها فى حياتى.

وكلما ظننت أننى السيد المسيطر فى موقف ما، يحدث شئ يطيح بى. سألت نفسى : لماذا؟!

هل هذا يعنى أنه محكوم على بالاقتراب من خط النهاية دون أن أصل إليه أبدا؟ وهل الرب قاس لدرجة أنه يسمح لى برؤية النخيل عند خط الاستواء، فقط لأموت من العطش فى الصحراء؟

واستغرقت وقتا طويلا لأدرك أن الأمر ليس هكذا تماما، فثمة أشياء تقتحم حياتنا لتعيدنا إلى الطريق الحقيقية، لأسطورتنا الشخصية.

وتظهر أشياء أخرى لنطبق ما تعلمنا، وفي النهاية تأتى أشياء لتعلمنا. فى كتاب (الحج) حاولت أن أوضح أن مثل هذه التعاليم لا داعى لربطها بالألم والمعاناة ، فالنظام واليقظة يكفيان.

ورغم أن مثل هذا الفهم أصبح نعمة كبرى فى حيلتى، فإنه لم يجهزنى لأتجاوز لحظات صعبة بعينها، حتى ولو استعنت بكل النظام واليقظة.

ومثال ذلك الحالة التى تذكرتها، لقد كنت مهنيا جادا، وبذلت قصارى جهدى لأخرج أفضل ما بداخلى ، وكانت بداخلى أفكار اعتبرها قيمة حتى الآن. ورغم ذلك وقع المحظور فى اللحظة التى شعرت فيها بذروة الأمن والثقة . وأعتقد أننى لست وحيدا فى هذه التجربة.

فالمحظور لا بد قد مس حياة كل إنسان على وجه الأرض، ليظل البعض مقيدا ويستسلم آخرون، ونشعر جميعا بأجنحة المأساة ترفرف فى وجوهنا.

لماذا؟

للإجابة عن هذا السؤال ، تركت "إيليا" يقودنا عبر أيامه ولياليه فى "أكبار".

مدخل:

فى بداية عام ٨٧٠ ق.م، كانت هناك أمة تعرف باسم (فينيقيا) ويدعوها الإسرائيليون (لبنان)، عاشت حوالى ثلاثة قرون فى سلام. وكان من حق مواطنيها أن يفخروا بإنجازاتهم، فرغم أنهم لم يكونوا أقوياء سياسيا، فقد نجحوا فى تطوير مهارة التفاوض وجعلوها وسيلتهم الرئيسية للنجاة فى عالم سيطرت عليه الحروب.

وحوالى عام ١٠٠٠ ق.م، حدث تحالف مع الملك سليمان "ملك إسرائيل" مما سمح بتحديث الأساطيل التجارية ، وتوسيع مجالات التبادل التجارى. ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف (فينيقيا) عن النمو.

جاب ملاحوها البحار إلى أماكن عديدة بعيدة مثل إسبانيا والمحيط الأطلنطى. وثمة نظريات - غير موثقة حتى الآن - بأنهم قد تركوا مخطوطات فى "شمال شرق" وجنوب البرازيل. وحملوا الزجاج، وخشب الأرز، والأسلحة، والحديد، والعاج.

وكان سكان المدن الكبيرة مثل (صيدا - تاير - بيبلوس) معتادين على إجراء الحسابات (الرقمية والفلكية) بالإضافة إلى صناعة النبيذ. وطوال مائتى عام أسست نظاما من حروف الكتابة أطلق الإغريق عليه: (حروف الهجاء).

وفى بداية عام ٨٧٠ ق.م اجتمع مجلس الحرب فى مكان قصى يدعى (نينيفا) وقررت مجموعة من القادة الأشوريين إرسال قوات لاحتلال الأمم بامتداد شاطئ المتوسط. واختيرت (فينيقيا) كأول دولة يجب احتلالها. وفى بداية عام ٨٧٠ ق.م كان ثمة رجلان مختبئان فى إسطبل (جلعاد) فى إسرائيل، توقعا الموت خلال الساعات القليلة التالية.

"وقال الحق أقول لكم إنه ليس نبى مقبولا فى وطنـــــه.
وبالحق أقول لكم إن أرامل كثيرة كن فى إسرائيل فى أيام "إيليـــا"
حين أغلقت السماء مدة ثلاث سنين وستة أشهر لما كان جــــوع
عظيم فى الأرض كلها. ولم يرسل "إيليا" إلى واحـــدة منـــها، إلا
إلى امرأة إلى صرفة صيداء".

"إنجيل لوقا"
الأصـــحاح الرابـــع
من آية ٢٤-٢٦

الـــجزء الأول

١

قال "إيليا": لقد حفظت الله ، والآن خذلني وتركني بين يدي أعدائي. أجابه "اللاوي": الرب هو الرب ، لم يخبر موسى عما إذا كان طيبا أو شريرا، ببساطة قال: أنا هو أنا . إنه كل شئ موجود تحت الشمس، الصاعقة التي تهدم منزلا، ويد الإنسان التي تعيد بناءه.

كان الحديث هو السبيل الوحيد لتجنب الشعور بالخوف، فعند أية لحظة قد يفتح الجنود باب الإسطبل حيث اختبا، فيكتشفون وجودهما. وعندها ثمة احتمال وحيد: إما الاعتراف بالمعبود "بعل" إله الفينيقيين، أو الإعدام.

كانوا يفتشون البيوت بيتا بيتا، عن الأنبياء ليتوبوا أو يعدموهم. وبالنسبة لـ "اللاوي" كان في مقدوره أن يعلن توبته وينجو من الإعدام. أما "إيليا" فلا خيار لديه. كل شئ كان يحدث عبر خطئه ، و"إيزابيل" أرادت رأسه تحت كل الظروف.

(ملاك الرب هو الذي دفعني للحديث إلى الملك "اخاب" وتحذيره بأن المطر لن يسقط ما دام "بعل" يعبد في

إسرائيل) هكذا قال "إيليا" متوسلا الصفح والغفران لأنه انتبه لما أخبره به الملاك. لكن مشيئة الرب كانت بطيئة، فعندما بدأت بوادر القحط، كانت الأميرة "إيزابيل" قد قضت على كل الذين ثبتوا على إخلاصهم لله.

.. لم ينطق "اللاوى" بشئ. كان يفكر هل يتوب إلى (بعل) أم يموت فى سبيل الله؟ من الله ؟ – أكمل "إيليا" – هل هو من يحمل السيف للجندى، السيف الذى يعدم كل الذين لن يخونوا عقيدة آبائنا؟

هل هو من أجلس أميرة أجنبية على عرش بلادنا، لتكون كل هذه المحن من نصيب جيلنا؟

هل يقتل الرب المؤمنين الأبرياء الذين تبعوا وصايا موسى ؟

كان "اللاوى" قد توصل إلى قراره: فضل الموت. عندئذ بدأ يضحك لأن فكرة الموت لن ترهبه بعد الآن. واستدار إلى النبى الصغير جواره وحاول تهدئته ، وقال : "سل الرب، طالما تشك فى قراراته. أما أنا فلقد تقبلت قدرى".

قال "إيليا" بإصرار : مستحيل أن يرضى الله لنا الذبح بلا رحمة.

قال "اللاوى" : للرب كل القوة . فهو إذا فعل فقط كل ما نراه حسنا، فلن ندعوه بالقدير، وسوف يحكم جزءا من الكون، وهذا يعنى وجود آخر أقوى منه، يراقب ويقيم أفعاله . وفى هذه الحالة سأعبد الآخر الأقوى.

قال "إيليا" : إذا كانت له كل القـــوة، فلمـــاذا لا يوفـــر المعاناة على الذين يحبونه؟ لماذا لا ينقذهـــم بـــدلا مـــن منـــح أعدائهم العظمة و الفخر؟

قال "اللاوى" : لا علم عندى. لكـــن الدافـــع موجـــود، وأمل أن نتعلمه قريبا.

قال "إيليا": لا إجابة لديك.

قال "اللاوى" : نعم.

وصمت الرجلان. وشعر "إيليا" بعرق بارد.

قال "اللاوى" : أنت مرعوب. أما أنا فقد تقبلت قـــدرى. سوف أخرج لأضع نهاية لهذا الكرب. ففى كـــل مـــرة أســـمع صرخة فى الخارج، أعانى متصورا كيف سيكون الحال عندمـــا تحين ساعتى. وطوال اختبائنا مت مائة مرة ، بينما ميتة واحـــدة لا غير هى ما سأواجهه. فإذا كان رأسى سيقطع ، فليكـــن هـــذا سريعا قدر الإمكان.

وكان على حق. فـــ "إيليا" ســـمع نفـــس الصرخـــات، وتحمل من المعاناة أكثر مما يطيق. وقال له : ســـوف أذهـــب معك، فلقد سئمت من القتال لأجل بضع ساعات من الحياة.

نهض وفتح باب الإسطبل، سامحا للشـــمس أن تدخـــل وتكشف وجود الرجلين المختبئين هناك.

* * *

أمسك "اللاوى" ذراعه، وسارا.

وبرغم صرخة أو أخرى ، بدا اليوم طبيعيـــا بالنســـبة لمدينة مثل غيرها من المدن: الشمس تلـــوح الجلـــد العـــارى،

والنسيم القادم من المحيط البعيد يلطف درجة الحرارة، والشوارع الترابية والبيوت المبنية من خليط من الطين والقش.

قال "اللاوى" : أرواحنا سجينة الرعب من الموت، واليوم جميل.

لمرات عديدة من قبل، عندما شعرت بالسكينة مع الله والعالم، كانت حرارة الجو فظيعة وريح الصحراء ملأت عينى بالرمل ولم تسمح لى أن أرى لأبعد من يدى، فتدبيره لا يتفق دائما مع ما نحن عليه أو نشعر به، لكن تيقن من أن لديه سببا لكل هذا.

قال "إيليا" : يعجبنى إيمانك.

نظر "اللاوى" إلى السماء، واستغرق فى التفكير لبرهة، وعندئذ استدار إلى "إيليا" وقال: لا تتعجب، ولا تتماد فى تصديقك، فلقد كان الأمر رهانا بينى وبين نفسى . لقد راهنت أن "الرب موجود".

رد "إيليا" : أنت نبى . فأنت أيضا تسمع أصواتا وتعرف أن ثمة عالما وراء هذا العالم.

قال "اللاوى" : قد تكون خيالات.

قال "إيليا" بإصرار: لقد رأيت علامات الرب. وبدأ ينتابه شعور بالإثارة تجاه كلمات رفيقه.

وأعاد "اللاوى" نفس التعليق: قد تكون خيالات . فواقعيا كان الشئ الوحيد الملموس لدى هو رهانى، فلقد قلت لنفسى كل شئ لابد يأتي من الأعالى.

* * *

كانت الشوارع خاوية . وفى داخل منازلهم كان الناس ينتظرون جنود (اخاب) ليكملوا المهمة التي كلفتهم بها الأميرة الأجنبية: إعدام أنبياء إسرائيل. مشى "إيليا" محاذيا لـ "اللاوى" وقد سيطر عليه انه خلف كل باب أو نافذة هناك شخص يراقبه ، ويلومه على ما حدث.

(لم أطلب أن أصبح نبيا، وقد يكون كل شئ ثمرة خيالاتى) هكذا فكر "إيليا".

لكن بعد ما حدث فى دكان النجارة، عرف أنه لم يكن كذلك.

* * *

منذ الطفولة كان يسمع أصواتا ويتحدث مع الملائكة.

كان هذا عندما دفعه والده للسعى إلى راهب إسرائيلى، وبعد أن سأل عدة أسئلة، قال عن "إيليا" إنه: نبى، رسول، رجل الروح الذى يسمو بكلمة الرب.

وبعد الحديث معه لعدة ساعات، أخبر الكاهن أباه وأمه بأنه مهما يكن ما ينطق به الصبى يجب أن يتخذ كأمارة جادة.

وعندما غادرا هذا المكان ، أمره أبوه وأمه الا يخبر أى مخلوق بما رأى أو سمع، فأن تكون نبيا يعنى علاقات مع الحكومة، وهذا دائما أمر خطير.

على كل – لم يسمع "إيليا" مطلقا أى شئ قد يهم الرهبان أو الملوك . فقط كان يتحدث مع "ملاكه الحارس" ، وكل ما سمعه نصيحة تتعلق بحياته الخاصة ، ومن حين لآخر كانت تتراءى له بعض الرؤى التى لم يستطع فهمها: بحار

بعيدة، جبال تسكنها مخلوقات عجيبة، وعجلات بأجنحة وعيون.

وبمجرد اختفاء هذه الرؤى، كان يبذل قصارى جهده - مطيعا أباه وأمه - لينساها بأسرع ما يمكن.

ولهذا السبب - أصبحت الأصوات والرؤى أقل تكرارا. وشعر والداه بالسعادة، ولم يتناولا هذا الموضوع مرة ثانية.

وعندما أصبح فى سن تسمح له بالاعتماد على نفسه، أقرضاه بعض المال ليفتح دكان نجارة صغيرا.

* * *

ومن حين لآخر كان يحدق باحترام إلى الأنبياء الذين طافوا الشوارع فى "جلعاد" مرتدين عباءاتهم وأحزمتهم الجلدية المعتادة، قائلين: إن الله قد كلفهم أن يهدوا المختارين من الناس.

بحق - لم يكن هذا مصيره، فلم يكن بمقدوره أبدا أن يستثير النشوة عبر الرقص أو جلد الذات: تلك الممارسة الشائعة بين الذين مجدهم صوت الرب؛ لأنه كان يخاف الألم. ولم يكن فى مقدوره أن يتجول فى شوارع "جلعاد" كاشفا بفخر ندوب الجروح التى تكونت خلال حالة النشوة؛ لأنه كان خجولا جدا. كان "إيليا" يعتبر نفسه رجلا عاديا، يرتدي مثل الباقين الذين يعذبون روحه، ولديه نفس مخاوف وإغواءات الفانين البسطاء.

وباستمراره في العمل بدكان النجارة، تلاشت الأصوات كلية. فالناضجون والعمال لا وقت لديهم لمثل هذه الأشياء.

فرح الأب والأم بابنهما، واستمرت الحياة في تناغم وسلام. وأصبحت محادثته مع الكاهن وقت أن كان طفلا بمثابة ذكرى خافتة.

ولم يستطع "إيليا" أن يصدق أن الله الجبار يجب عليه أن يتحدث مع الرجال لتطاع أوامره.

وهكذا أصبح ما حدث فى طفولته مجرد خيالات صبى بلا شئ يفعله .

وفى "جلعاد" ، وطنه، كان كثيرون يعتبرهم الناس مخبولين، هؤلاء لم يكن باستطاعتهم أن يتكلموا بشكل مترابط ومفهوم، أو يميزوا بين صوت الله وضلالات الجنون. كانوا يقضون حياتهم فى الشوارع، يبشرون بنهاية العالم، وكانوا يعيشون على إحسان الآخرين. ورغم ذلك لم يعتبرهم الكهنة من الذين "يمجدهم صوت الرب".

واستنتج "إيليا" فى النهاية أن الكهنة لم يتأكدوا قط مما كانوا يقولونه . فـ "تمجيد الرب" كان نتيجة متوقعة لبلد غير متأكد من طريقه، حيث يقاتل الأخ أخاه، وتظهر حكومة جديدة بانتظام.

وهكذا أصبح الأنبياء والمجانين شيئا واحدا.

عندما علم بأمر زواج ملكه من "إيزابيل"، أميرة "تاير"، اعتبر هذا أمرا ضئيل الأهمية. فلقد فعل نفس الشئ

ملوك آخرون من إسرائيل، وكانت النتيجة استمرار السلام في المنطقة، والأهم من ذلك المتاجرة مع لبنان.

ولم يكن "إيليا" يهتم كثيرا بما إذا كان الناس في الأقطار المجاورة يؤمنون بالالهة غير المتعينة أم وهبوا أنفسهم لشعائر عقائد غريبة مثل عبادة الحيوانات والجبال. لكنهم كانوا أمناء في مفاوضاتهم، وهذا هو المهم.

داوم "إيليا" على شراء خشب الأرز الذى يحضرونه، وكذلك على بيع منتجات دكان النجارة. ورغم أنهم كانوا متغطرسين نوعا ما، ويحبون أن ينادوا بـ (الفينيقيين) بسبب لون جلودهم المختلف، لم يحاول أى من التجار اللبنانيين استغلال حالة الارتباك التى شاعت فى إسرائيل. وكانوا يدفعون ثمنا عادلا للبضائع ولا يعلقون على الحروب الأهلية الدائمة أو على المشكلات السياسية التى تواجه الإسرائيليين.

وبعد وصولها إلى العرش، طلبت "إيزابيل" من الملك "آخاب" أن يستبدل بعبادة الله عبادة الأرباب اللبنانية.

حتى هذا سبق أن حدث من قبل.

وظل "إيليا" رغم ازدرائه لإذعان "آخاب" ، يعبد إله بنى إسرائيل ويتبع وصايا موسى.

وكان يقول لنفسه : سوف ينتهى هذا الحال ، فإذا كانت "إيزابيل" قد أغوت "آخاب" فلن تنجح فى إقناع الناس.

لكن "إيزابيل" لم تكن مثل بقية النساء، كانت تعتقد أن "بعل" قد جاء بها إلى العالم لتهدى الأمم والناس وتحولهم إلى عبادته.

وبمكر وصبر، بدأت تكافئ الذين هجروا عبادة الله وقبلوا المعتقدات الجديدة. وأمر (اخاب) ببناء معبد لـ (بعل) فى (سامرة) وبه أقام مذبحا. وتوالت رحلات الحج، وانتشرت عبادة الآلهة اللبنانية فى كل الأنحاء.

واستمر "إيليا" على اعتقاده بأن هذه الحال سوف تنتهى، قد يستغرق ذلك جيلا. لكنها سوف تنتهى.

عندئذ - حدث شئ لم يكن متوقعا . ذات ظهيرة، وأثناء عمله للانتهاء من منضدة فى الدكان: أظلم المكان من حوله وبدأت آلاف البقع المضيئة تومض أمامه، والمه رأسه بشكل لم يجربه من قبل. وحاول أن يجلس لكنه لم يستطع تحريك عضلة واحدة. لم يكن لخيالاته علاقة بالأمر.

(أنا أموت)، هكذا ظن للحظة، والآن سوف أكتشف إلى أين يرسلنا الرب بعد الموت: إلى قلب الجحيم. وبرقت الأضواء فجاة كما لو كانت تأتى من كل مكان، وجاءته كلمات الرب قائلة: اذهب وأخبر (آخاب) أنه : (حى هو الرب إله إسرائيل الذى وقفت أمامه. إنه لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى).

فى اللحظة التالية عاد كل شئ طبيعيا، دكان النجارة، ضوء الظهيرة، أصوات الأطفال الذين يلعبون فى الشارع.

* * *

لم ينم "إيليا" تلك الليلة. فلأول مرة منذ سنوات عاودته أحاسيس طفولته. ولم يكن الحديث لملاكه الحارس؛ وإنما "لشئ ما" أكبر وأقوى. وخشى أنه إذا فشل فى تنفيذ الأمر قد تبور تجارته.

وفى الصباح قرر أن يفعل كما طلب منه. فهو مجرد رسول لشئ لا يتعلق به ، وبمجرد انتهاء المهمة ، لن تعود الأصوات لمضايقته.

ولم يكن من الصعب تدبير مقابلة مع الملك (أخاب). فقبل عدة أجيال، وبصعود الملك "صموئيل" إلى العرش، اكتسب الأنبياء أهمية فى التجارة والحكومة. وسمح لهم أن يتزوجوا وينجبوا، لكن يجب عليهم أن يكونوا دائما مطيعين لله، وهكذا لن يضل الحكام عن سواء السبيل.

وحفظت التقاليد بأنه بفضل هؤلاء (الذين مجدهم الرب) تحقق الانتصار فى معارك عديدة، وأن إسرائيل نجت لأنه عندما كان حكامها يحيدون عن الطريق القويم ، كانوا يجدون نبيا يعيدهم إلى طريق الله.

عند وصوله إلى القصر، أخبر الملك أن القحط سوف يعم المنطقة حتى تنبذ عبادة آلهة الفينيقيين .

ولم يعر الملك انتباها لكلماته ، لكن (إيزابيل)، التى كانت إلى جوار (أخاب)، أنصتت باهتمام إلى كل ما قال "إيليا"، وسألت سلسلة من الأسئلة بشأن الرسالة . وأخبرها "إيليا" عن الرؤية ، وعن الألم فى رأسه، والشعور بأن الزمن قد توقف أثناء إنصاته للملاك.

وأثناء وصفه لما حدث، كان فى استطاعته أن يلاحظ عن قرب الأميرة التى تحدث عنها الجميع، كانت من أجمل السيدات اللائى شاهدهن على الإطلاق، بشعر أسود طويل ينسدل على خصر جسد رائع. وعيناها الخضراوان اللتان برقتا

فى وجهها الداكن ، كانتا مثبتتين على "إيليا"، وكان غير قادر على توقع ما توحيان به، مثلما لم يكن يستطيع معرفة الأثر الذى سببته كلماته.

وغادر مقتنعا بانه أنجز مهمته، ويستطيع العودة إلى عمله فى دكان النجارة. فى طريقه رغب فى (إيزابيل)، بكل شهوة سنواته الثلاث والعشرين، وسأل الرب عما إذا كان فى المستقبل يستطيع أن يجد امرأة من نساء لبنان، بما يتميزن به من جمال، بجلدهن الداكن وعيونهن الخضراء الممتلئة بالسحر والغموض.

* * *

عمل بقية النهار، ونام فى سلام.

فى الصباح التالى أيقظه "اللاوى" قبل شروق الشمس، فلقد نجحت "إيزابيل" فى إقناع الملك بأن الأنبياء يعوقون نمو وتطور إسرائيل ، فأمر (اخاب) جنوده أن يعدموا كل من يرفض التخلى عن الشعائر المقدسة التى فرضها الرب عليهم . أما "إيليا" - وحده - فلم يكن له حق الاختيار، كان قتله أمرا واجبا. ومعظم الأنبياء الذين جابوا الشوارع وعذبوا أنفسهم وبشروا بنهاية العالم لفساده وندرة الإيمان، قبلوا التحول إلى العقيدة الجديدة.

* * *

صوت حاد، تبعته صرخة اخترقت أفكار "إيليا"، فاستدار منزعجا إلى رفيقه متسائلا: ماذا كان هذا؟

لم يكن ثمة إجابة . تهاوى جسد "اللاوى" إلى الأرض وقد اخترق سهم صدره. وأمامه وقف جندى يضبط سهما آخر فى قوسه.

تطلع "إيليا" حوله : كانت الأبواب والنوافذ بامتداد الشارع مغلقة بإحكام، والشمس مشرقة على الحدائق، ونسمة تأتى من المحيط الذى سمع عنه الكثير لكنه لم يره أبدا.

فكر أن يجرى، لكنه كان يعرف أنه سوف يقتنص قبل أن يصل إلى الزاوية التالية. فكر بينه وبين نفسه: إذا كان يجب أن أموت، فلا يجب أن يكون هذا من الخلف. ثانية - رفع الجندى قوسه، ودهش "إيليا" لأنه لم يشعر بالخوف أو الرغبة فى النجاة أو بأى شئ آخر. بدا الأمر كما لو كان كل شئ قد تحدد منذ زمن بعيد، وكلاهما - هو واللاوى - يلعبان أدوارا فى دراما ليست من كتابتهما.

تذكر طفولته، الصباحات وفترات الظهيرة فى "جلعاد". العمل غير المنتهى الذى تركه فى دكان النجارة.

فكر فى أمه وأبيه، اللذين لم يرغبا أن يصبح ابنهما نبيا، فكر فى عينى (إيزابيل) وابتسامة الملك (أخاب)، وفكر كم هو غبى ليمت فى الثالثة والعشرين دون أن يجرب حب امرأة.

أطلقت يد الجندى الوتر، فانطلق السهم يصفر فى الهواء، ويهمى عند عبوره جوار أذنه اليمنى، ليدفن نفسه فى كومة التراب خلفه.

أعاد الجندى تسليح قوسه وأشهره، ولكن بدلا من الإطلاق ، حدق إلى "إيليا" ، وقال: أنا أمهر رام فى كل جيوش الملك (آخاب)، وطوال سنوات ست لم أخطئ مطلقا فى رمية.

استدار "إيليا" إلى جسد "اللاوى".

قال الجندى: كنت المقصود بهذا السهم، وقوس الجندى ما زال مسلحا ويداه ترتعشان، فـ "إيليا" هو النبى الوحيد الذى يجب أن يقتل ، أما الآخرون فيمكنهم أن يختاروا الإيمان بـ "بعل".

كان دهشا من هدوئه هذا، فلقد تخيل الموت كثيرا خلال الليالى فى الإسطبل، والان أدرك أنه قد عانى بلا داع، ففى لحظات معدودة سوف ينتهى كل شئ. قال الجندى : لا أستطيع ، ويداه ما زالتا ترتعشان والسهم يغير اتجاهاته فى كل لحظة. ارحل، اخرج من عالمي، لأنه إذا كان الرب قد جعل سهمي ينحرف، فسيلعننى إذا قتلتك.

حينئذ وباكتشافه أن الموت قد يغفل عنه، عاوده الخوف من الموت، فما زالت ثمة إمكانية لرؤية المحيط، العثور على زوجة، إنجاب أطفال، بالإضافة إلى استكمال عمله فى الدكان.

قال "إيليا" : انته من ذلك هنا والان. فى هذه اللحظة أنا هادئ وإذا توانيت فسوف أعانى وفوق ذلك سأعتبر نفسى خاسرا.

نظر الجندى حوله ليتأكد أن أحدا لم يشهد هذا الموقف. عندئذ خفض القوس، ووضع السهم فى كنانته، واختفى عند المنحنى.

شعر "إيليا" بقدميه تضعفان ، وعاوده الرعب بكل وطأته. يجب أن يفر فى الحال، يختفى من "جلعاد"، ولا يجب أن يواجه ثانية جنديا بقوس مشدود وسهم موجه إلى قلبه.

لم يكن قد اختار مصيره، ولا رغب فى رؤية (اخلب) ليتبجح ويخبر جيرانه أنه يستطيع محادثته.

ولم يكن مسئولا عن مذبحة الأنبياء، ولا حتى عن توقف الزمن ذات ظهيرة فى دكان النجارة الذى تحول إلى فجوة مظلمة ممتلئة بالنقاط المضيئة ... محاكيا إيماءة الجندى نظر حوله، كان الشارع خاليا تماما.

فكر فى إمكانية انقاذ حياة "اللاوى"، لكن الرعب عاوده سريعا، وقبل أن يظهر أى شخص آخر، اختفى "إيليا".

٢

مشى ساعات عديدة، سالكا طرقات لم تستخدم منذ زمن بعيد.

وعندما وصل إلى ضفة نهر "كريث" شعر بالخجل من جبنه وبالبهجة لبقائه على قيد الحياة.

شرب قليلا من الماء، جلس وعندئذ أدرك الموقف الذى أصبح عليه: من الغد يجب أن يطعم نفسه، ولا أمل في العثور على طعام فى الصحراء.

تذكر دكان النجارة وسنوات عمره الطويلة ، وأنه مرغم على تركها وراءه . ورغم أن بعض الجيران كانوا أصدقاءه ، فلن يستطيع الاعتماد عليهم. أما قصة فراره ، فبالتأكيد قد انتشرت عبر المدينة ، وأصبح الجميع يكرهونه لهروبه هذا، بينما أرسل رجالا إيمانهم حقيقى إلى الاستشهاد..

ومهما كان ما فعله فى الماضى، فهو الآن يستلقى فى القفار ، لأنه اختار أن ينفذ مشيئة الرب.

.. غدا ، وفى الأيام والأسابيع والشهور القادمة، سيطرق التجار اللبنانيون بابه وسيخبرهم شخص ما أن المالك قد فر، مخلفا وراءه موت الأنبياء الأبرياء . وربما يضيفون أنه قد حاول تحطيم الآلهة التي تحمى الجنة والأرض، وسرعان ما ستعبر القصة حدود إسرائيل، وعندها يستحسن أن ينسى إلى الأبد الزواج من امرأة فى جمال اللبنانيات.

* * *

"السفن"..

نعم كانت هناك السفن. فعادة ما كان يقبل المجرمون وأسرى الحرب والهاربون كبحارة ، لأنها كانت مهنة أكثر خطورة من الجيش. ففي الحرب دائما لدى الجندى فرصة ليفلت بحياته، لكن البحار مجهولة ومسكونة بالوحوش، وعندما تقع المأساة لا يتبقى من يحكى الحكاية.

كانت هناك السفن، لكن كان التجار الفينيقيون يتحكمون فيها.

ولم يكن "إيليا" مجرما أو سجينا أو هاربا، لكنه كان شخصا جرؤ على رفع صوته ضد الإله "بعل". وهكذا عندما يكتشفونه، سيقتل ويلقى فى البحر، لأن البحارة يعتقدون أن "بعل" وأربابه يتحكمون فى العواصف . لا يستطيع أن يتجه إلى المحيط. ولا يستطيع الذهاب إلى الشرق حيث تورطت بعض القبائل الإسرائيلية فى حروب استمرت جيلين.

* * *

أعاد استدعاء الشعور بالسكينة الذى جربه فى وجـــود الجندى.

على كل – ماذا كان الموت؟ الموت مجرد لحظـــة – ليس أكثر. حتى لو شعر بالألم ، فسيزول هـــذا الشـــعور فـــى الحال، عندئذ سيضمه الله (إله الحشود) إلى صدره.

استلقى على الأرض، ونظر إلى السماء فترة طويلـــة . ومثل "اللاوى" حاول أن يراهن. لم يكن يراهن علــــى وجـــود الرب، فليس لديه شك فى هذا، بل على الدافع وراء حياته.

رأى الجبال، والأرض التى سيعمها – عما قريـــب – قحط طويل ، كما قال ملاك الله، لكنها حتى الآن ما زالت مندا‌ة بامطار أجيال عديدة مضت.

رأى نهر (كريث) الذى ستتوقف مياهه – فـــى وقـــت قصير – عن الجريان . تقبـــل رحيلـــه عـــن الدنيـــا بحماســـة واحترام، وبتوسل إلى الله أن يتقبله عندما تحين ســـاعته. فكـــر فى الدافع وراء وجوده ، ولم يحصل على أية إجابة.

فكر إلى أين يذهب ، واكتشف أنه محاصر. وفى اليوم التالى سيعود ويسلم نفسه، حتى ولو عاوده الخوف من الموت.

حاول أن يجد بهجة فى معرفة أنـــه سيســـتمر حيـــا لساعات قليلة. كل هذا هراء فلقد اكتشف أن الإنسان كمـــا فـــى معظم أيام الحياة، لا يقوى على اتخاذ قرار.

٣

غدا ، أو بعد سنة من الآن، سيكون الفراش من الرمل الناعم والحجارة الملساء. ويظل السكان القدامى يشيرون إلى المكان بوصفه نهر (كريث)، وقد يوجهون المارين به قائلين: "هذا المكان يقع على ضفة النهر الذى يجرى قريبا من هنا". ويصل المسافرون إلى هناك، فيرون الحجارة المستديرة والرمل الناعم ويقولون لأنفسهم هنا فى هذه الأرض كان يوجد نهر.

لكن أهم ما يميز النهر، وهو جريان الماء، لم يعد موجودا ليروى ظمأهم. والأرواح أيضا، مثل الأنهار والنباتات، فى حاجة لنوع مختلف من المطر: الأمل – الإيمان – ودافع للحياة. وعندما لا تتحقق هذه الحالة، يموت كل شئ فى الروح حتى لو استمر الجسد فى الحياة، وقد يقول الناس:

(هنا – فى هذا الجسد كان يوجد، ذات مرة، رجل..).

ولم يكن الوقت مناسبا للتفكير فى هذا.

ثانيا - تذكر المحادثة بينه وبين "اللاوى" قبيل مغادرتهما الإسطبل.

ما الذى يضيفه الموت مرات عديدة، لإنسان يشعر بالرضا؟

كل ما يجب عليه أن ينتظر جنود (إيزابيل). سوف يأتون بلا أدنى شك، فثمة أماكن قليلة أمام الفارين من "جلعاد". الآثمون يفرون غالبا إلى الصحراء، حيث يعثر عليهم أمواتا فى غضون عدة أيام، أو إلى (كريث) حيث يقبض عليهم سريعا. لهذا سيأتى الجنود قريبا، وسوف يبتهج برؤيتهم.

* * *

شرب قليلا من الماء الرقراق الذى يجرى جواره وغسل وجهه . عندئذ بحث عن مكان ظليل يستطيع فيه انتظار مطارديه.

الإنسان لا يستطيع محاربة قدره، وقد حاول وخسر. فبرغم اعتقاد الكهنة أنه نبى، قرر أن يعمل كنجار، لكن الله أعاده إلى طريقه.

ولم يكن (إيليا) الإنسان الوحيد الذى يهجر الحياة التى كتبها الله لكل إنسان على الأرض. فقد كان له صديق ذو صوت رائع لم يرغب أبواه أن يجعلاه مغنيا، لأن هذه المهنة تجلب الخزى على العائلة.

وكانت له صديقة من أيام الطفولة استطاعت أن تصبح راقصة ، لا نظير لها، هى الأخرى حرمت عليها عائلتها هذه المهنة، لأن الملك يأمر باستدعائها - ، ولا يعلم أحد إلى متى

سيستمر حكمه، بالإضافة إلى أن المناخ في القصر اعتبره الناس ملوثا بالخطيئة وعدائيا، مما يقضي نهائيا على أية إمكانية لزواج ناجح.

.. "الإنسان يولد ليخون قدره.."

فقط يضع الرب مهاما مستحيلة في قلوب الناس.

"لماذا؟" ربما لأن العادات يجب الحفاظ عليها.

ولم تكن هذه الإجابة مناسبة. فسكان لبنان أكثر تقدما منا لأنهم لم يتبعوا عادات الملاحين. فعندما كان الآخرون يستخدمون نفس نوع السفن، قرروا بناء شئ مختلف. وخسر كثيرون حياتهم في البحر، ورغم ذلك استمر تطور سفنهم. وهل هم اليوم يسيطرون على تجارة العالم. لقد دفعوا ثمنا غاليا ليتغيروا، وثبت أن الأمر يستحق.

وقد يكون الإنسان قادرا على خيانة قدره، لأن الرب ليس قريبا، فلقد وضع في قلوب الناس حلما بعصر كان كل شئ ممكنا فيه، وبعد ذلك شغل نفسه بأشياء أخرى. وغير العالم من نفسه، وأصبحت الحياة أكثر صعوبة. لكن الله لم يعد ليغير أحلام الإنسان.

الرب بعيد. وعندما يداوم على إرسال ملائكته ليتحدثوا إلى أنبيائه؛ فهذا يعني أن شيئا ما تبقى ويجب القيام به.

فماذا تكون الإجابة؟

ربما لأن آباءنا سقطوا في الخطأ، وخافوا أن نكرر أخطاءهم. وربما لم يخطئوا أبدا، ولهذا لم يعرفوا كيف

يساعدوننا عندما نواجهنا بعض المشاكل. شعر أنه يقترب من الإجابة . كان النهر يجرى إلى جواره، وقليل من الغربان تحوم فى السماء، والنباتات تتشبث بإصرار كى تحيا فى الأرض الرملية المجدبة. فهل أنصتوا إلى كلمات أسلافهم؟ وماذا سمعوا؟

.. (يا "نهر" ابحث عن مكان أفضل لمياهك الصافية لتعكس بريق الشمس، فالصحراء ذات يوم ستجعلك تجف) هكذا سيقول إله المياه، إذا كان له وجود. وسيقول إله الطير: (يا "غربان" هناك الكثير من الطعام فى الغابات أكثر مما يوجد بين الصخور والرمال).

وسيقول إله الزهور: (يا نباتات، انشرى بذورك بعيدا عن هنا، فالعالم ملئ بالأرض الرطبة الخصبة، وعندها ستصبحين أجمل..).

لكن (كريث) مثله مثل النباتات والغربان؛ وأحدها حط بالقرب من هنا؛ لديه الشجاعة الكافية ليفعل ما ظنته الأنهار والطيور والزهور الأخرى مستحيلا. حدق "إيليا" فى غراب، وقال للطائر: أنا أتعلم. رغم أن الدرس بلا جدوى لأنه محكوم على بالموت.

بدا أن الطائر يجيب: ها قد اكتشفت كم كل شئ بسيط، يكفى التحلى بالشجاعة. ضحك "إيليا"، لأنه كان يضع الكلمات فى فم الطائر. كانت لعبة مسلية؛ تعلمها من امرأة تصنع الخبز.

وقرر الاستمرار. سوف يسأل ويجيب كما لو كان حكيما حقيقيا.

على كل – طار الغراب، وعاد "إيليا" إلى انتظار جنود (إيزابيل) ليموت ميتة نهائية وهو يشعر بالرضا.

ومر اليوم دون حدوث أى شئ. فهل يكونون قد نسوا أن العدو الرئيسى للإله (بعل) ما زال حيا؟

يجب أن تكون (إيزابيل) على علم بمكانه – فلماذا لا تطارده؟

قال لنفسه: عرفت بعد أن رأيت عينيها أنها امرأة حكيمة. ولهذا أدركت أننى إذا مت، فسأخلد كشهيد فى سبيل الله. أما إذا تحولت إلى مجرد هارب، فسأصبح جبانا لا يؤمن أحد بكلامه.

نعم – هذه هى استراتيجية الأميرة.

* * *

قبيل حلول المساء حط غراب – هل من الممكن أن يكون نفس الغراب؟ – على نفس الغصن الذى سبق ورآه عليه هذا الصباح وكانت ثمة قطعة لحم صغيرة فى منقاره سقطت فجأة. ولم يعرف "إيليا" من أين جاءت، ولم يكن يرغب، فكل ما كان يهمه أنه سيشبع جزءا صغيرا من جوعه.

وبرغم حركة (إيليا) المفاجئة، لم يطر الغراب.

فخمن: هذا الغراب يعرف أننى كنت معرضا للموت جوعا هنا. إنه يطعم فريسته ليحصل على وليمة أفضل فيما بعد.

مثلما غذت (إيزابيل) الإيمان بـ (بعل) بأخبار عن هروب "إيليا".

... كلاهما، الإنسان والغراب، يتأمل أحدهما الآخر.

واستدعى اللعبة التى لعبها هذا الصباح.

قال "إيليا" : أرغب فى الحديث إليك يا غراب. هذا الصباح ظننت أن الأرواح تحتاج الطعام. وإذا كانت روحى لم تهلك من الجوع، فقد يعنى هذا أن لديها شيئا ترغب فى البوح به. وظل الطائر ساكنا.

تابع "إيليا": وإذا كان لديها ما تبوح به، فيجب أن أنصت، فليس لدى أحد آخر أتحدث إليه. وفى خيالاته تقمص "إيليا" الغراب وسأل نفسه كما لو كان يسأل الغراب:

- ماذا يتوقع الرب منك؟
- يتوقع أن أكون نبيا
- هذا ما قاله الكاهن، وقد لا يكون ما يرغبه الرب.
- نعم هو ما يرغب. فلقد ظهر ملاك لى فى الدكان وطلب منى أن أتحدث إلى (آخاب). سمعت الأصوات مثل طفل.
- قاطعة الغراب: كل واحد يسمع أصواتا مثل الأطفال.
- قال "إيليا": لكنه لا يرى ملاكا.

هذه المرة لم يعلق الغراب. وبعد فترة صمت اخترق هذيان الطائر، أو هو روحه فى الغالب، من حرارة الشمس والوحدة فى الصحراء، اخترق الصمت وسأل نفسه: هل تتذكر المرأة التى اعتادت إعداد الخبز؟

تذكر "إيليا"، لقد جاءته تطلب منه أن يصنع لها بعض الصواني، وأثناء عمله لإنجاز ما طلبت، سمعها تقول إن عملها وسيلة للتعبير عن وجود الرب.

وقالت: من أسلوبك في صناعة الصواني أرى لديك نفس الشعور، لأنك تبتسم وأنت تعمل. كانت المرأة ترى أن الناس صنفان: صنف يحمل الشعور بالبهجة داخله، أما الصنف الآخر فدائم الشكوى مما يفعل ، وهؤلاء يؤكدون أن اللعنة التي ألقاها الله على آدم هي الحقيقة الوحيدة : (ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك) وهم لا يشعرون بأية متعة ويستخدمون كلمات الرب مبررا لحياتهم التافهة ، متناسين أن الرب قد قال لـ "موسى" أيضا:

(لأن الرب إنما يباركك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبا لتمتلكها) نعم.. أتذكر المرأة. لقد كانت على حق، فأنا أستمتع بعملي في دكان النجارة، لقد علمتني أن أتحدث إلى الأشياء.

وجاءه الرد: إذا لم تعمل كنجار، ما كنت لتستطيع أن تضع روحك خارجك.. لتتظاهر بأنها غراب يتكلم، ولتدرك أنك أفضل وأكثر حكمة مما تعتقد . فلقد اكتشفت في دكان النجارة أن القداسة موجودة في كل شئ.

قال "إيليا" : دائما كنت أشعر بالسعادة عندما أتظاهر بمحادثة المناضد والكراسي التي صنعتها: ألم يكن هذا كافيا؟ . وعندما تحدثت إليها، كنت أجد أفكارا لم ترد إلى رأسي من قبل. وقد أخبرتني المرأة أن هذه الحالة ترجع إلى أنني أضع

الجزء الأكبر من روحى فى العمل، وهذا الجزء هو ما كان يجيبنى.

لكن عندما بدأت أدرك أننى أستطيع خدمة الرب بهذه الطريقة، ظهر الملاك و ... حسنا - أنت تعرف الباقي.

- قال الغراب: ظهر الملاك لأنك كنت جاهزا لذلك.

● قال "إيليا": كنت نجارا ماهرا.

- ".. كل هذا جزء من مهنتك. فعندما يتوجه المرء نحو قدره، غالبا ما يجبر على تغيير وسائله فى الحياة. وفى أحيان أخرى تكون القوى المحيطة بالإنسان قوية للغاية، ويجبر على التخلى عن شجاعته وقدرته على المنح. كل هذا جزء من المهنة".

أنصت "إيليا" باهتمام إلى كل ما كانت روحه تقوله.

- "لكن لا أحد يفقد رؤية ما يرغبه . حتى فى تلك اللحظات التى يعتقد فيها أن العالم والآخرين أقوى منه. ويكمن السر فى : لا تستسلم."..

● قال "إيليا" : لم أظن أننى قد أصبح نبيا.

- "لقد فعلت، لكنك كنت مقتنعا أن هذا مستحيل أو خطير أو غير منطقى".

وقف "إيليا" وقال: لماذا تخبرنى بما لا أرغب فى سماعه.

.. جفل الطائر، وطار.

* * *

عاد الطائر فى الصباح التالى. وبدلا من معاودة الحديث، بدأ "إيليا" يتأمله، فالحيوان دائما يسعى لإطعام نفسه ويحضر له ما يتبقى من طعام. نشأت علاقة غامضة بينهما. وبدأ "إيليا" يتعلم من الطائر.

وبمتابعته، رأى أنه يبحث عن الطعام فى الصحراء، واكتشف أنه يستطيع النجاة عدة أيام أخرى إذا تعلم القيام بنفس الشئ.

وعندما طار الغراب، دار حول نفسه، فعرف "إيليا" أن ثمة فريسة فى متناول اليد وعليه أن يجرى لهذه البقعة ليمسك بها.

فى البداية فر الكثير من الحيوانات الصغيرة التى تعيش هناك . لكنه اكتسب تدريجيا المهارة والرشاقة اللازمة لاصطيادها. استخدم الفروع كرماح، وحفر فخاخا أخفاها بطبقة رقيقة من الأغصان والرمال.

وعندما تسقط الفريسة، يقسم "إيليا" الطعام بينه وبين الغراب، ويحجز جزءا من الطعام ليستخدمه كطعم.

لكن الحالة الوحيدة التى وجد نفسه فيها كانت بشعة ومحبطة ، ولهذا قرر التظاهر بمحادثة الغراب.

- سأله الغراب: من أنت؟

- أجاب "إيليا": أنا رجل وصل إلى السكينة . أستطيع العيش فى الصحراء، أعول نفسى، وأتأمل الجمال اللامتناهى فى مخلوقات الرب. اكتشفت أن بداخلى روحا أفضل بكثير مما ظننت.

واستمرا يصيدان معا شهرا قمريا آخر.

وذات ليلة عندما مس الأسى روحه، سأل نفسه ثانية :

من أنت؟

وأجاب: لا أعرف.

* * *

مات قمر آخر ثم ولد من جديد فى السماء.

شعر "إيليا" أن جسده أقوى، وذهنه أكثر صفاء.

في المساء استدار إلى الغراب الذى كان قد حط على نفس الفرع، وأجاب عن السؤال الذى طرحه منذ عدة أيام مضت:

"أنا نبى، رأيت ملاكا أثناء عملى، ولا أشك فى قدرتى على القيام بذلك حتى ولو أخبرنى العالم بالعكس. جلبت الهلاك على وطنى بتحدى أقرب الناس إلى قلب الملك. أنا فى الصحراء، كما كنت قبل ذلك فى دكان النجارة، لأن روحى أخبرتنى أن الإنسان يجب أن يمر بمراحل مختلفة قبل أن يشبع قدره.

علق الغراب: نعم . الآن أنت تدرى من تكون.

فى هذه الليلة، عندما عاد "إيليا" من الصيد، ذهب ليشرب فوجد نهر (كريث) قد جف. لكنه كان مرهقا جدا وقرر أن ينام.

فى الحلم جاءه ملاكه الحارس الذى لم يره منذ زمن بعيد، وأمره : (انطلق من هنا، واتجه نحو المشرق واختبئ عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن، فتشرب من النهر وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك).

"روحى سمعت" – قال "إيليا" فى الحلم.

"إذن استيقظ، ملاك الرب يأمرك بهذا، ويرغب فى الحديث إليك.." قفز "إيليا" مروعا، وصاح ماذا حدث؟

فرغم أنه المساء، كان المكان ممتلئا بالضوء، وظهر ملاك الرب.

سأله الملاك: ما الذى جاء بك إلى هنا؟

أجاب "إيليا": أنت من جاء بى إلى هنا.

قال الملاك: لا ، بل (إيزابيل) وجنودها هم سبب فرارك. لا يجب أن تنسى هذا، فالمهمة هى الانتصار للرب الإله.

قال "إيليا" : أنا نبى ، لأنك كائن فى وجودى، وأسمع صوتك.

قد غيرت وجهاتى عدة مرات مثلما يفعل كل الرجال، لكننى مستعد للذهاب إلى "سامرة" للقضاء على (إيزابيل).

قال الملاك: رغم أنك وجدت الطريق، فلا تستطيع أن تدمر؛ ما لم تتعلم أن تبنى جديدا. ولذا آمرك:

(قم واذهب إلى صرفة التى لصيدون وأقم هناك. هو ذا قد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك).

فى الصباح التالى. بحث "إيليا" عن الغراب ليودعه، ولأول مرة منذ وصوله إلى ضفة نهر "كريث" لم يظهر الطائر.

٤

سافر "إيليا" عدة أيام قبل وصوله إلى الوادى حيث تقع مدينة (صرفة) التى يعرف سكانها بـ "الأكبار".

وعندما كادت قواه تخور، رأى امرأة ترتدى السواد وتجمع الحطب. كانت الخضرة متناثرة فى الوادى ولهذا كان عليها أن تقنع ببعض غصون صغيرة وجافة.

سألها: من أنت؟

نظرت المرأة للأجنبى. ولم تكن - بحق - تفهم ما قال.

قال "إيليا": أحضرى لى ماء لأشرب، واحضرى كذلك كسرة خبز، وضعت المرأة الحطب جانبا، وظلت لا تنطق بشئ.

قال "إيليا" بإصرار: لا تخافى. أنا وحيد وجائع وظمآن ولا أقوى على إيذاء أى إنسان.

نطقت المرأة أخيرا: أنت لست من هنا. ومن لهجتك أجزم أنك من مملكة إسرائيل. وإذا كنت تعرفنى جيدا، فستعلم أنى لا أمتلك اى شئ.

قال "إيليا": أنت أرملة. هذا ما أخبرنى الله بـــه. ومـــا أملكه قد يكون أقل مما تملكيـــن. وإذا لـــم تمنحينـــى الطعـــام والشراب الان؛ فسوف أموت.

تراجعت المرأة للخلف متسائلة: كيف لهذا الأجنبـــى أن يعرف حياتها؟

وبعد ان أفاقت قالت: على الرجل أن يشـــعر بالعـــار عندما يطلب العون من امرأة . قال "إيليا" بإصرار: افعلى كمـــا أطلب، مستشعرا أن قوته فى طريقها للزوال، وعندما أتحســـن ساعمل لديك.

ضحكت المرأة وقالت: منذ لحظات قلت شيئا حقيقيـــا: أنا أرملة فقدت زوجها على ظهر واحدة من سفن بلدى. لـــم أر المحيط أبدا، لكننى أعرف أنه مثل الصحراء يقتل من يتحداه.

وأكملت: لكنك الان قلت لى شيئا خاطئا. فمثلمـــا أنـــا موقنة من وجود (بعل) على قمة الجبل الخامس، أعرف أنـــه لا يوجد عندى أكثر من كف من الدقيق فى برميل ومقدار ضئيـــل من الزيت فى قارورة.

رأى "إيليا" الأفق يغير اتجاهه، فادرك أنه سيفقد وعيه.

استجمع اخر ما به من قوة، وتوسل إليها لاخر مـــرة : "لا أعرف إذا كنت تعتقدين فى الأحلام أم لا، ولا أعرف ما إذا كنت أنا شخصيا أعتقد فيها، لكن الله أخبرنى أن أصـــل إلـــى هناك وأجدك. لقد فعل أشياء دفعتنى لأشك فى حكمتـــه، لكـــن ليس فى وجوده. وهكذا أخبرنى إله إسرائيل أن أقـــول للمـــرأة التى سأقابلها فى "صرفة": (كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيـــت

لا ينقص إلى اليوم الذى فيه يعطى الرب مطـــرا علـــى وجـــه الأرض).

وقبل أن يفسر كيف حدثت هذه المعجزة، فقـــد "إيليـــا" وعيه.

وقفت المرأة تحدق فى الرجل المستلقى عند قدميـــها . كانت تعرف أن إله إسرائيل مجرد خرافة ، والهـــة الفينيقيين أكثر قوة، ولقد جعلت من وطنها واحدا من أكثر الأمم احتراما على ظهر الأرض.

رغم ذلك كانت سعيدة. فعادة ما تطلب الإحسان مـــن الاخرين ، والان – كما لم يحدث من زمن طويـــل – يحتـــاج رجل إليها.

جعلها هذا تشعر بالقوة، فلقد كان دليلا علـــى وجـــود اخرين فى ظروف أسوأ منها. وقالت: إذا كان ثمـــة شـــخص يطلب منى صنيعا، فهذا يرجع إلى أننى ما زلت نافعـــة علـــى هذه الأرض.

سافعل كما طلب، فقط لأخفف معاناته، فلقـــد جربـــت الجوع وأعرف قدرته على تدمير الروح.

ذهبت إلى منزلها، وعادت بقطعة خبز وبعض المـــاء . ركعت على ركبتيها ووضعت رأس الأجنبـــى فـــى حجرهـــا، وبدأت تبلل شفتيه.

.. بعد دقائق قليلة استعاد وعيه.

رفعت إليه الخبز، أكل "إيليا" فى هدوء، وهـــو يحـــدق فى الوادى والوهاد والجبال الشاخصة فى صمت تجاه السماء.

استطاع "إيليا" أن يرى الجدران الحمراء لمدينة (صرفة) مسيطرة على الطريق عبر الوادى.

"دعينى أقيم معك لأننى منبوذ فى وطنى" - قال "إيليا".

سألته المرأة : أى جرم اقترفت؟!

قال "إيليا": أنا نبى الله. وأمرت (إيزابيل) بموت كل الذين يرفضون عبادة الآلهة الفينيقية .

سألته: كم عمرك؟

أجتب: ثلاثة وعشرون عاما.

نظرت بإمعان إلى الشاب المستلقى أمامها. كان له شعر طويل قذر، ولحية غير كثيفة، فبدا كما لو كان يرغب أن يبدو أكبر من سنوات عمره.

تساءلت : كيف يستطيع تابع فقير مثله أن يتحدى أقوى أميرة فى العالم؟ وقالت: إذا كنت عدوا لـ (إيزابيل) فأنت عدوى كذلك. فهى أميرة (تاير) ومهمتها منذ زواجها بملكك ؛ أن تحول الناس إلى الإيمان الحقيقى، أو هكذا قال هؤلاء الذين قابلوها..!!

أشارت إلى أحد القمم التى تحيط بالوادى، وقالت: آلهتنا تعيش فى الجبل الخامس منذ أجيال عديدة، وقد حفظت السلام فى بلدنا. أما إسرائيل فتعيش فى حرب ومعاناة. فكيف تستمر فى الإيمان بإله واحد؟ امنح "إيزابيل" الوقت لتنجز عملها، وسوف ترى السلام يعم كل المدن.

قال "إيليا": لقد سمعت صوت الله. أما قومك فلم يتسلقوا أبدا إلى قمة الجبل الخامس ليكتشفوا ماذا يوجد هناك.

قالت المرأة: أى شخص يتسلق الجبل الخامس ستقتله النار المنبعثة من السماء، فالآلهة لا تحب الغرباء.

وصمتت ، فلقد تذكرت حلمها الليلة الماضية بضوء ساطع، ومن داخله أتى صوت يقول: "استقبلى الغريب الذى أتى بحثا عنك.".

قال "إيليا" بإصرار: امنحينى مكانا عندك، فلا مكان عندى لأنام.

قالت: أخبرتك أنى فقيرة، بالكاد لدى ما يكفينى وابنى.

قال: الله طلب إليك أن أبقى، وهو لا يخذل من يحبهم . افعلى ما أطلبه منك وسوف أعمل عندك، أنا نجار وأعرف كيف استخدم خشب الأرز ولن يكون ثمة شئ لا أستطيع القيام به. وهكذا سوف يستخدم الله يدى ليحفظ وعده: (كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى يعطى الرب مطرا على وجه الأرض).

قالت المرأة: حتى لو رغبت فى ذلك، فلن أستطيع الدفع لك.

قال "إيليا": لا حاجة لذلك. الله سوف يفعل.

.. مرتبكة من حلم الليلة السابقة، وبما عرفته من أن الغريب عدو لأميرة "تاير"، قررت المرأة أن تطيع.

٥

سرعان ما اكتشف الجيران وجود "إيليا" . وتناقل الناس أن الأرملة قد استضافت أجنبيا فى منزلها، مما يسيئ إلى ذكرى زوجها، البطل الذى مات فى محاولة لمد الخطوط التجارية لوطنه.

وعندما سمعت الإشاعات ، ردت عليها بأنه نبى إسرائيلى جاءها فارا من الجوع والعطش. وانتشر الخبر بأن نبيا إسرائيليا هاربا من (إيزابيل) مختبئ فى المدينة. وذهب الجمع لمقابلة كبير الكهنة الذى أمر بإحضار الأجنبى إليه. ونفذ أمره فى مساء نفس اليوم. جاءوا بـ "إيليا" إلى "كبير الكهنة" الذى يسيطر مع الحاكم وقائد الجيش على ما يحدث فى (أكبار)

ساله "كبير الكهنة" : ما الذى جئت لتفعله هنا؟ ألا تدرى أنك عدو بلدنا؟

أجاب "إيليا": لسنوات وأنا أتاجر مع لبنان، وأحترم شعبكم وعاداته.

أنا موجود هنا؛ لأنني منبوذ فى إسرائيل.

قال "كبير الكهنة" : أعرف السبب. أليست امرأة هى التى جعلتك تهرب؟!

قال "إيليا": هذه المرأة هى أجمل مخلوق قابلته فى حياتى كلها، رغم أننى وقفت أمامها لبرهة قصيرة. لكن قلبها كالحجر . وخلف هاتين العينين الخضراوين يكمن العدو الذى يرغب فى تدمير وطنى. أنا لم أفر، فقط، أتحين اللحظة المناسبة للعودة.

ضحك "كبير الكهنة" وقال : إذا كنت تتحين اللحظة المناسبة لتعود، جهز نفسك أن تبقى فى (أكبار) لبقية حياتك. لسنا فى حرب مع بلدك. كل ما نتوق إليه أن نرى الإيمان الحقيقى ينتشر بطرق سلمية فى شتى أنحاء العالم. ولا رغبة لدينا فى تكرار الأعمال الوحشية التى اقترفها شعبك عندما نصبتم أنفسكم حكاما على كنعان.

قال "إيليا": هل قتل الأنبياء من الطرق السلمية؟

قال "كبير الكهنة" : إذا قطعت رأس الوحش، لن يصبح له وجود. قد يموت البعض، ورغم ذلك لا يمكن تجنب الحروب العقائدية للأبد. ومما نقله التجار أن نبيا اسمه "إيليا" هو الذى أشعل كل هذا، وفر.

وحدق فيه كبير الكهنة قبل أن يكمل: إنه رجل يبدو قريب الشبه منك.

رد "إيليا" : إنه أنا.

قال "كبير الكهنة" : رائع . مرحبا بك في مدينة (أكبار). فعندما تكون لنا حاجة عند "إيزابيل" ، سندفع رأسك مقابلها ، فهي أهم ما نمتلكه من عملات. وحتى ذلك الوقت، فتش عن وظيفة وتعلم كيف تعول نفسك. فهنا لا مكان للأنبياء.

وكان "إيليا" يستعد للرحيل عندما قال له "كبير الكهنة": يبدو أن امرأة شابة من صيدا أقوى من إلهك، فلقد نجحت في إنشاء مذبح لبعل، وأمامه الآن يسجد الكهنة العجائز.

قال (النبي): كل شئ سيتم كما كتب الرب.

فثمة لحظات تحدث فيها محن وبلايا في حيواتنا ولا نستطيع تجنبها . لكنها موجودة لسبب ما.

سأل "كبير الكهنة" : أي سبب تعني؟

قال "إيليا" : هذا هو السؤال، ولا نستطيع الإجابة قبل أو أثناء المحن. فقط عندما نتغلب عليها سنفهم لماذا كانت موجودة.

* * *

وبمجرد رحيل "إيليا" ، دعى "كبير الكهنة" جمعا من المواطنين الذين قد شاهدوه هذا الصباح، وقال لهم : لا شأن لكم بهذا الأمر ، فالعادات توجب أن نستضيف الأجانب. بالإضافة إلى أنه هنا تحت سيطرتنا ونستطيع متابعة خطواته. فأفضل طريقة لمعرفة وتدمير خصمك هي التظاهر بأنك أصبحت صديقه. وعندما يحين الوقت سوف نسلمه إلى (إيزابيل)، ومقابله ستتسلم مدينتنا الذهب وغيره من المكافآت.

وحتى هذا الحين، سنكون قد تعلمنا كيف ندمر أفكاره، فحتى الآن لا نعرف إلا كيف ندمر جسده.

ورغم أن "إيليا" كان عابدا لإله واحد، وهو عدو لـــدود للأميرة، فضل "كبير الكهنة" احترام حق اللجوء. فكـــل واحـــد يعرف التقليد القديم: إذا رفضت مدينة توفير مـــأوى لمســـافر، فسيواجه أبناؤها نفس المشكلة.

وحيث إن الجزء الأكبر من مواطنى (أكبار) لهم أبنـــاء منتشرون فى كل الأسواق التجارية لبلدهم، لم يجرؤ أحد علـــى تحدى قانون الضيافة.

بالإضافة إلى أنه لن يكلفهم شيئا أن ينتظـــروا اليـــوم الذى تبادل به رأس النبى اليهودى بكمية كبيرة من الذهب.

وفى هذا المساء تناول "إيليـــا" العشـــاء مـــع الأرملـــة وابنها، فلقد أصبح النبى الإســـرائيلى ســـلعة قيمـــة للمســـاومة والمقايضة فى المستقبل. ولهذا أرسل تجار كثيرون مـــا يكفـــى لإطعام ثلاثتهم لمدة أسبوع.

قالت الأرملة : يبدو أن الرب إلـــه إســـرائيل يحفـــظ وعده. فمنذ موت زوجى لم تمتلئ منضدتى مثل اليوم.

* * *

٦

.. شيئا فشيئا أصبح "إيليا" جزءا من الحياة في "صرفة"، مثل جميع سكانها أصبح يدعى بـ "أكبار".

قابل الحاكم، وقائد الجيش، وكبير الكهنة، وكبير صناع الزجاج - المشهورين في أرجاء المنطقة.

وعندما سئل عن السبب الذي جاء به إلى هنا، لم يكن يستطيع سوى النطق بالحقيقة، فقال : كانت إيزابيل تذبح الأنبياء في إسرائيل.

قالوا: أنت خائن لبلدك ، وعدو لفينيقيا . لكننا تجار نعرف أنه كلما كان الرجل خطيرا كلما ارتفع ثمنه.

وعلى هذه الحال - مضت عدة شهور.

* * *

٧

عند مدخل الوادى، أقام بعض جنود الاستكشاف الآشوريين معسكرا لهم. مما جعل الأمر يبدو أنهم ينوون البقاء.

ورغم أن مجموعة صغيرة من الجنود لا تمثل أى خطورة ، فلقد طلب القائد من الحاكم اتخاذ بعض الإجراءات.

قال الحاكم: لكنهم لم يفعلوا شيئا لنا. هم حتما فى مهمة تجارية، يبحثون عن طريق أفضل لبضائعهم . وإذا قرروا استخدام طرقاتنا فسيدفعون ضرائب مقابل ذلك، وسيزيدنا ذلك ثراء. فلماذا نستشيرهم؟

ولتزداد الأمور تعقيدا، مرض ابن الأرملة بلا سبب واضح، وأرجع الجيران مرضه إلى وجود الغريب فى بيتها. فطلبت الأرملة من "إيليا" أن يرحل. لكنه لم يرحل، لأن الله لم يشأ بعد.

وانتشرت الشائعات بأن الأجنبى جلب لعنة آلهة الجبل الخامس.

٨

على مبعدة، وفى منتصف الوادى، بدأت خيام المقاتلين الآشوريين تتزايد، كان القائد مهتما ، لكنه لم يلق تأييد الحاكم أو كبير الكهنة. وحاول أن يبقى مقاتليه متأهبين دائما، رغم ما يعرفه من أنهم، وحتى أجدادهم، لم يعرفوا معنى المواجهة الحربية. فالحرب كانت شيئا مستبعدا فى (أكبار) . وكل الاستراتيجيات التى تعلمها تم تجاوزها بالتقنيات والأسلحة الجديدة التى استخدمتها البلاد الأخرى.

قال الحاكم: دائما كانت (أكبار) تتفاوض من أجل السلام. وليس هذا بالوقت الذى يسمح بغزونا. دع البلاد الأخرى تتعارك فيما بينها، فنحن لدينا سلاح أقوى بكثير مما لديهم من أسلحة. لدينا "المال". وعندما ينتهون من تدمير بعضهم البعض، سندخل مدنهم ونبيع منتجاتنا.

نجح الحاكم فى تهدئة الجماهير تجاه الاشوريين . لكن الشائعات ذاعت بأن الإسرائيلى جلب لعنة الآلهة على (أكبار). وأصبح "إيليا" مشكلة ضخمة .

فى الظهيرة - ساءت حالة الولـــد بشـــدة. أصبـــح لا يستطيع التحمل أكثر من ذلك، أو التعرف على الذيـــن يـــأتون لزيارته.

وقبيل غروب الشمس ركع "إيليـــا" والأرملـــة بجـــوار سرير الطفل.

قال "إيليا": أيها الإله العظيم، الذى وجه سهم الجنـــدى، وجاء بى إلى هنا، اشف هذا الطفل فهو لم يقترف شـــيئا، إنـــه برئ من خطاياى وخطايا أبيه . انقذه يا الله.

بالكاد تحرك الطفل. كانت شفتاه شـــاحبتين ، وعينـــاه تفقدان بريقهما سريعا. سألته الأرملة: صـــل لإلـــهك ، لأجـــل امرأة وحيدة تستشعر رحيل روح ابنها. شعر "إيليا" بالرغبة فـــى إمساك يديها ، ليخبرها أنها ليســـت وحيـــدة، وأن الله العظيـــم سوف يساعده، فهو نبي قبل الحقيقة على ضفاف نهر "كريـــث"، والان الملائكة إلى جواره.

أكملت الأرملة: لم يعد لدى دموع . إذا لم يكـــن لديـــه أى شعور بالرحمة، وإذا كان ما يريد هو حيـــاة شـــخص مـــا، أطلب منه أن يأخذنى ويدع ابنى يمشـــى فـــى الـــوادى وفـــى طرقات (أكبار).

فعل "إيليا" كل ما فى وسعه ليركز فى صلاته وتوسله، لكن معاناة الأم كانت شديدة، لحد أنها بـــدت كمـــا لـــو كـــانت احتوت الحجرة واخترقت الجدران والباب فى كل مكان.

مس جسد الولد، ولم تكن حرارته بنفس ارتفاع الأيـــام السابقة، وكانت هذه علامة سيئة.

*   *   *

جاء كبير الكهنة إلى المنزل هذا الصباح، وكما سبق وفعل طوال أسبوعين وضع كمادات الأعشاب على وجه الولد وصدره.

فى الأيام السابقة أحضرت النساء وصفات العلاج المجربة لأجيال، التى أثبتت قدرتها الفائقة على الشفاء فى حالات عديدة.

وكل ظهيرة يجتمعن عند سفح الجبل الخامس ويقدمن القرابين حتى لا تفارق روح الولد جسده.

ودفعت هذه الحالة تاجرا مصريا كان يمر بـ (أكبار) إلى منح أمه "مسحوقا أحمر" - بلا مقابل - ليخلط مع طعام الولد.

وحسب الأسطورة ، فإن تقنية صنع هذا المسحوق سر اختصت به الالهة المصرية الأطباء المصريين.

وواصل "إيليا" صلاته بلا توقف. ولم يحدث أى تحسن.

* * *

"أعرف لماذا سمحوا لك بالبقاء هنا" ، هكذا قالت المرأة بصوت يزداد ضعفا فى كل مرة تتكلم، لأنها لم تنم لليال عديدة، أعرف أن ثمة سحرا لرأسك ، وفى يوم سيسلمونك إلى إسرائيل مقابل الذهب. أما إذا أنقذت ابنى ، فإننى أقسم بـ "بعل" وبكل أرباب الجبل الخامس أنك لن تقع فى أيديهم مطلقا، فأنا أعرف طرقا للهرب نسيت منذ أجيال، وسوف أعلمك كيف ترحل من (أكبار) بدون أن ترى.

ولم يرد "إيليا".

سألته ثانية : صل لربك الإله الواحد. فإذا أنقذ ابني ، اقسم أنني سأنبذ "بعل" وأؤمن به. قل له كيف أنني منحتك المأوى عندما كنت بحاجة له، وهكذا فعلت كما أمر.

صلى "إيليا" ثانية بكل ما به من قوة . وفي هذه اللحظة ارتعش الولد، وقال بصوت ضعيف: أريد أن أرحل عن هنا.

التمعت عينا أمه بالسعادة، وتدحرجت الدموع على وجنتيها ، وقالت: تعال يا بني ، سنرحل إلى حيث تحب، ونفعل كما ترغب.

حاول "إيليا" حمله، لكن الولد دفع يده بعيدا وقال: أريد أن أفعل هذا بنفسي . نهض ببطء ومشى باتجاه الغرفة الخارجية. وبعد خطوات معدودة سقط على الأرض كما لو كانت أردته طلقة من الضوء.

جرى "إيليا" والأرملة إليه. كان الولد ميتا.

للحظة لم يتفوها بكلمة . وفجأة بدأت المرأة تصرخ بكل قوتها: "اللعنة على الآلهة! اللعنة على كل من أخذ طفلي مني! اللعنة على الرجل الذي جلب الشؤم على بيتي! طفلي الوحيد...... وصرخت.

ألأنني احترمت إرادة السماء، ألأنني كنت كريمة مع الأجنبي.. يموت ابني..!!"

سمع الجيران نحيب الأرملة، وشاهدوا ابنها ملقى على ارض المنزل.

كانت المرأة لا تزال تصرخ وقبضتاها تخبطان صدر النبى الإسرائيلى إلى جوارها.

وبدا أنه فقد أية قدرة على رد الفعل، ولم يفعل شيئا ليدافع عن نفسه.

وأثناء ما كانت امرأة تحاول تهدئة الأرملة ، حاصر الرجال "إيليا" سريعا بأذرعهم واقتادوه إلى الحاكم، وقالوا: هذا الرجل كافأ الكرم بالكراهية. ووضع اللعنة فى بيت الأرملة، ومات ابنها. لقد آوينا شخصا لعنته الآلهة. بكى الإسرائيلى وسأل نفسه : "آه يا إلهى وربى، حتى هذه الأرملة التى كانت كريمة معى، اخترت أن تعذبها..؟!".

وإذا أهلكت ابنها ، فسيكون هذا بسبب فشلى فى المهمة التى أوكلتها إلى، وعندها أكون أنا من يستحق الموت..!!

فى هذا المساء - اجتمع مجلس المدينة تحت قيادة كبير الكهنة والحاكم، وأحضروا "إيليا" لمحاكمته.

قال الحاكم: اخترت أن تقابل الحب بالكراهية . لذا حكمت عليك بالموت حتى لو كانت رأسك تساوى كيسا من الذهب. لا نستطيع أن نجلب علينا غضب آلهة الجبل الخامس. وفى النهاية لن يعيد كل مال العالم، السلام إلى هذه المدينة.

نكس "إيليا" رأسه. فهو يستحق كل المعاناة التى يتعرض لها، لأن الله قد خذله.

قال كبير الكهنة: ستتسلق الجبل الخامس. وستطلب المغفرة من الآلهة التى حقرت شأنها ؛ وسوف تنزل نارا من

السماء لتهلكك . وإذا لم تفعل، فهذا لأنها ترغب في تحقيق العدالة على أيدينا. وسوف ننتظر عند سفح الجبل. وحسب الشعائر ستعدم في الصباح التالي.

كان "إيليا" على دراية بالإعدام المقدس: ينتزعون القلب من الصدر، ويقطعون الرأس. وحسب المعتقدات القديمة لا يدخل الجنة رجل بلا قلب.

صرخ "إيليا": لماذا اخترتني لهذا يا الله؟!

- ويعرف أن الرجال وهو منهم لا يعرفون شيئا عما اختاره الله لهم. فهل ترى أنني غير قادر على تنفيذ ما طلبته مني؟

ولم يسمع أية إجابة ..

٩

بالصراخ الهتاف وارتطام الأحجار، تبع الرجال والنساء المجموعة التى حرست الإسرائيلى إلى الجبل الخامس. وبصعوبة بالغة نجح الجنود فى السيطرة على الزحام. وبعد السير لنصف ساعة وصلوا إلى سفح الجبل المقدس.

وقفت المجموعة المصاحبة لـ "إيليا" عند المذابح الحجرية ، حيث يترك الناس هداياهم وقرابينهم ، رغباتهم وصلواتهم.

كان الجميع يعرفون قصص العمالقة التى تعيش فى المنطقة، وتذكروا هؤلاء الذين تحدوا التحريم فقط للمطالبة بالنار السماوية، والمسافرون المارون بالوادى فى المساء يسمعون ضحكات الأرباب والربات وهى تمرح فى الأعالى.

ورغم أنه لا أحد متأكد من ذلك، لم يجرؤ أحد على تحدى الآلهة.

قال جندى: لنذهب. ناخسا "إيليا" برأس رمحه. فمن يقتل طفلا يستحق أسوأ عقاب هناك.

* * *

صعد "إيليا" إلى المنطقة المحرمة، وبدأ يتسلق المنحدر.

وبعد السير لبعض الوقت ، وحينما لم يسمع صراخ الناس من (أكبار)، جلس على صخرة وبكى. فمنذ اليوم الذى رأى فيه الظلمة وقد انتشرت بها بقع براقة من الضوء، نجح فقط فى جلب سوء الحظ على الآخرين.

لقد فقد الله أنصاره فى إسرائيل، وعبادة الألهة الفينيقية بالتأكيد أصبحت الآن أقوى من قبل.

فى ليلته الأولى بجوار "كريث" ظن "إيليا" أن الرب قد اختاره ليصبح شهيدا مثلما فعل مع كثيرين غيره . ورغم ذلك أرسل الله غرابا – طائر نذير شؤم – أطعمه حتى جف نهر "كريث" . فلماذا غراب وليست حمامة أو ملاكا؟ ألا يمكن أن يكون الأمر كله محض هذيان رجل يحاول إخفاء خوفه أو هذيان رجل تعرضت رأسه طويلا للشمس؟

لم يكن "إيليا" متأكدا من أى شئ. فربما يكون الشر قد وجد أداته وربما يكون هو تلك الأداة.

لماذا أرسله الرب إلى (أكبار) بدلا من إعادته ليضع نهاية للأميرة التى أنزلت مثل هذا الشر بشعبه؟

شعر كما لو كان جبانا ، لكنه فعل كما أمر.

لقد صارع لينكيف مع هؤلاء الناس الغرباء الكرماء، وطريقتهم المختلفة تماما فى الحياة. وحينما اعتقد أنه يحقق مصيره، مات ابن الأرملة.

.. .. .. لماذا أنا؟!!

* * *

نهض ومشى مسافة قصيرة حتى دخل السديم الذى يغطى قمة الجبل.

وكان يستطيع انتهاز فرصة عدم وضوح الرؤية ليفر من مضطهديه، ولكن ما الفائدة؟. لقد سئم الفرار، وعرف أنه لن يجد مكانا يأويه فى هذا العالم. حتى ولو نجح فى الفرار الآن، سيحمل اللعنة معه إلى مدينة أخرى، وستدور تراجيديات أخرى. فأينما ذهب سيصطحب معه أشباح هؤلاء الموتى، وفضل أن ينتزع قلبه من صدره وتقطع رأسه.

جلس ثانية بين الضباب، وقد قرر أن ينتظر برهة ليظن من ينتظرونه بأسفل أنه وصل إلى قمة الجبل، عندئذ يعود إلى (أكبار) ويستسلم لآسريه.

"نار السماء" سبق لها أن قتلت الكثيرين، ورغم أن "إيليا" شك أنها كانت ترسل من قبل الله، وفى الليالى القمرية يعبر وهجها السماء. وما يظهر فجأة يختفى سريعا - قد تحرق، قد تقتل فى لحظة بلا ألم.

* * *

عندما حل المساء تناثر الضباب، واستطاع رؤية الوادى بأسفل وأضواء (أكبار) ونيران معسكر الآشوريين. وسمع نباح كلابهم وأناشيد الحرب التى يرددها الجنود.

قال لنفسه: أنا مستعد. لقد قبلت أن أكون نبيا، وبذلت كل ما أستطيع فيما فعلته. ورغم ذلك فشلت . والآن يحتاج الرب شخصا آخر.

في هذه اللحظة، هبط ضوء عليه.. .. .. "نار السماء"..! توقفت النار أمامه وسمع صوتا يقول : أنا ملاك الله.

ركع "إيليا" على ركبتيه ووضع وجهه على الأرض.

قال "إيليا" دون أن يرفع رأسه: لقد رأيتك في مرات سابقة، وأطعت ملاك الله، ورغم ذلك لم أفعل شيئا، فقط رأيت سوء الحظ في كل مكان ذهبت إليه.

لكن الملاك تابع: عندما تعود إلى المدينة ، توسل ثلاث مرات كي تعود الحياة إلى الولد. في المرة الثالثة سيستجيب الله لك.

قال "إيليا": لماذا أفعل هذا؟

قال الملاك: لأجل مجد الرب.

قال "إيليا": حتى لو حدث هذا، فأنا أشك في نفسي لأنني لست أهلا لهذه المهمة.

قال الملاك: من حق كل إنسان أن يشك في مهمته، وأن يتخلى عنها من وقت لآخر. ولكن ما لا يجب أن يفعله هو أن ينساها.

ومن لا يشك في جدارته، لإيمانه المطلق بقدرته، يرتكب خطيئة الزهو والخيلاء.

م.ُركون هم الذين تمر بهم لحظات من التردد.

قال "إيليا": منذ لحظات رأيت أننى لم أكن متيقنا أنـــك رسول الرب.

قال الملاك: اذهب ، واطع ما قلته لك.

*   *   *

١٠

بعد مرور وقت طويل ، هبط "إيليا" الجبل إلى حيث توجد مذابح التضحية . كان الحراس فى انتظاره ، لكن الجموع كانت قد عادت إلى (أكبار).

قال: أنا جاهز للموت، طلبت الصفح من آلهة الجبل الخامس، والآن مروا - قبل أن تفارق روحى جسدى - أن أذهب إلى منزل الأرملة التى آوتنى، وأطلب منها أن تبدى بعض الرحمة تجاه روحى. اقتاده الجنود إلى حضرة "كبير الكهنة"، حيث كرروا ما قاله الإسرائيلى. قال "كبير الكهنة" للسجين: سأفعل كما طلبت. فحيث أنك سعيت لمغفرة الآلهة، يجب أن تسعى لمغفرة الأرملة. ولن تستطيع الهرب لأن أربعة جنود مسلحين سيصحبونك.

لكن حتى لو أقنعتها بطلب الرحمة لك، فعندما يأتى الصباح سنعدمك فى منتصف الميدان.

وتمنى "كبير الكهنة" أن يستفسر عما رآه عند قمة الجبل، لكن فى وجود الجنود ربما تكون الإجابة مثيرة. لهذا

قرر أن يلتزم الصمت واستحسن أن يقوم "إيليا" بطلب الصفح علنيا أمام العامة، فعندها لن يستطيع أى شخص آخر آن يشك فى قوة آلهة الجبل الخامس. ذهب "إيليا" والجنود إلى الشارع الضيق الفقير حيث اختبأ لعدة شهور. كانت أبواب ونوافذ منزل الأرملة مفتوحة، مما يعنى - حسب العادات - أن روح ابنها تستطيع أن ترحل لتعيش مع الآلهة. كان الجسد فى منتصف الحجرة الصغيرة ، وجميع الجيران يجلسون فى يقظة يصلون. وعندما لاحظوا وجود الإسرائيلى سيطر الرعب على الرجال والنساء وصرخوا فى الحراس: خذوه واخرجوا..!! ألا يكفى ما تسبب فيه من شر؟ إنه ضال وشرير لدرجة أن آلهة الجبل الخامس رفضت أن تلوث أيديها بدمه..!

صرخ رجل: اتركوا لنا مهمة قتله! سننفذها الآن دون انتظار لطقس الإعدام..!!

متماسكا فى مواجهة الدفعات واللكمات ، خلص "إيليا" نفسه من الأيدى التى قبضت عليه، وجرى إلى الأرملة التى جلست تبكى فى ركن .

قال : أستطيع إعادته من الموت، دعينى ألمس ابنك للحظة مجرد لحظة.

ولم ترفع الأرملة رأسها.

قال بإصرار: من فضلك. حتى ولو كان هذا هو آخر شئ ستفعلينه من اجلى فى هذه الحياة، امنحينى الفرصة لأحاول أن أجازيك على كرمك.

طوقه بعض الرجال ليسحبوه بعيدا. لكن "إيليا" قاوم وصارع بكل قوته، ملتمسا السماح له بملامسة الطفل الميت.

ورغم أنه كان شابا ومتشبثا بإصرار، جذب فى النهاية بعيدا إلى باب المنزل.

وصرخ للسموات: يا ملاك الله، أين أنت؟!!

فى هذه اللحظة، توقف الجميع فالأرملة قامت واتجهت نحوه، وأخذته من يديه وقادته إلى حيث تستلقى جثة ابنها، وأزاحت الوشاح الذى غطاها، وقالت: بحق دم عشيرتى الذى سيسيل على أفراد أسرتك إذا لم تحقق ما ترغب.

.. اقترب "إيليا" ليلمس الولد.

قالت الأرملة: لحظة – سل ربك أولا أن يحقق لعنتى.

قال : لينسال دم هذا الولد على رؤوس أبى وأمى وإخوتى وأبناء وبنات إخوتى؛ إذا لم أفعل ما قلت.

عندئذ – وبرغم كل شكوكه ، وبرغم ذنبه ومخاوفه:

(أخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التى كان مقيما بها وأضجعه على سريره وصرخ إلى الرب وقال أيها الرب إلهى، أيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها. فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال يارب يا إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه). وللحظات طويلة لم يحدث شئ. رأى "إيليا" نفسه وقد عاد إلى جلعاد، واقفا أمام الجندى الذى يصوب سهما نحو قلبه، مدركا أنه فى أحيان كثيرة لا شأن لمصير الإنسان بما يؤمن به أو يخافه. وشعر بالهدوء والثقة كما شعر فى هذا اليوم، مدركا أنه مهما كانت النتيجة ، فثمة سبب وراء حدوث كل هذا، وفوق الجبل الخامس دعا "ملاك الرب" هذا السبب بـ (عظمة الرب).

.. كان يامل أن يأتى يوم يفهم فيه لماذا يحتاج الخالق مخلوقاته ليحقق هذه العظمة.

عندئذ فتح الولد عينيه ، وسأل : أين أمى؟

أجاب "إيليا" مبتسما: بأسفل تنتظرك.

قال الولد: رأيت حلما غريبا. كنت أسافر خلال ثقب مظلم بسرعة تفوق أسرع حصان فى (أكبار)، ورأيت رجلا - أنا متأكد أنه أبى - رغم أننى لم أعرفه مطلقا. عندئذ وصلت إلى مكان جميل حيث أردت أن أمكث، لكن رجلا آخر - رجل لا أعرفه، لكنه بدا مهيبا وشجاعا جدا - طلب منى أن أرحل. وكنت أريد الاستمرار فى رحلتى لكنك أيقظتنى. بدا الولد حزينا، فالمكان الذى كاد أن يدخل، لا بد أنه كان جميلا.

قال الولد: لا تتركنى وحيدا، لأنك من جعلنى أعود من مكان كنت أشعر فيه بالحماية.

قال "إيليا" : لنهبط . أمك تريد أن تراك.

حاول الولد النهوض، لكنه كان ضعيفا ليمشى. حمله "إيليا" بين ذراعيه وهبط به.

وبدا الناس بأسفل وقد سيطر عليهم رعب شديد.

تساءل الولد: لماذا كل هؤلاء الناس هنا؟

وقبل أن يستطيع "إيليا" أن يجيب ، أخذت الأرملة الولد فى حضنها وقبلته وهى تبكى.

قال الولد: ماذا فعلوا لك يا أمى، لماذا أنت حزينة جدا؟

قالت وهى تجفف دموعها: لست حزينة. يا بنى . فلم أكن سعيدة فى حياتى مثل الآن.

أثناء ذلك سجدت المرأة على ركبتيها وقالت بصوت عال:

"بهذا الفعل عرفت أنك من أتباع الرب! لقد تجلى صدق الله فى كلماتك". حضنها (إيليا) وطلب منها أن تنهض.

قالت للجنود: دعوا هذا الرجل يذهب. لقد تغلب على الشر الذى نزل على منزلى.

اجتمع الناس على أنهم لا يستطيعون تصديق ما رأوا.

وإلى جوار الأرملة سجدت امرأة شابة فى العشرين من عمرها ، تعمل رسامة. وواحدا تلو الآخر قلد الآخرون إيماءتها ، ومن بينهم الجنود المكلفون باقتياد (إيليا) إلى السجن.

قال لهم (إيليا): انهضوا واعبدوا الله. فأنا مجرد واحد من خدامه، وربما أقلهم إعدادا.

لكن الجميع ظلوا ساجدين.

وسمع صوتا يقول: لقد تحدثت مع آلهة الجبل الخامس، والآن تستطيع أن تصنع المعجزات.

قال (إيليا) : لم يكن هناك آلهة. فقط رأيت "ملاك الله" الذى أمرنى أن أفعل هذا.

قال شخص آخر: كنت مع بعل وإخوته.

دفع (إيليا) جانبا بعض الساجدين، ليفسح لنفسه طريقا، وخرج إلى الشارع . كان قلبه ما زال يدق بسرعة شديدة، كما لو كان أخطأ وفشل فى إنجاز المهمة التى علمه إياها الملاك.

لكن ما فائدة استعادة الحياة لميت إذا لم يؤمن الناس بمصدر هذه القوة؟

طلب منه الملاك أن ينادى باسم الله ثلاث مرات ، لكنه لم يقل له كيف يفسر هذه المعجزة للجموع فى الغرفة بأسفل .

هل يكون الأمر كما كان مع الأنبياء القدامى، هل كان كل ما رغبته أن استعرض؟ هكذا تساءل.

سمع صوت ملاكه الحارس الذى تحدث معه منذ طفولته.

"نعم" أجاب (إيليا) . لكن ملائكة الله لا تتحدث مع الناس، إنهم ينقلون الأوامر التى يرسلها الرب.

قال "الملاك الحارس" : استخدم القوة.

لم يفهم (إيليا) المعنى المقصود، وقال : لا قوة لدى باستثناء ما يأتى من الله.

قال الملاك : لا أحد يمتلكها. لكن الجميع يستمدون القوة من الله ، ورغم ذلك لا يستخدمونها.

وأضاف الملاك: من الآن، وحتى اللحظة التى ستعود فيها إلى الأرض التى طردت منها، لن تحدث أية معجزة لك.

قال (إيليا): ومتى يكون ذلك؟

قال الملاك: الله يريدك لتعيد بناء إسرائيل.

سوف تطأ هذه الأرض عندما تتعلم إعادة البناء.

ولم ينطق الملاك بعد ذلك بشئ.

الجزء الثانى

١١

تلا "كبير الكهنة" الصلوات للشمس الساطعة ، متوسلا إلى رب العاصفة وربات الحيوانات أن ترحم الحمقى.

وكانوا قد أخبروه، هذا الصباح، أن "إيليا" قد أعاد ابن الأرملة من مملكة الموتى. كانت المدينة مرعوبة ومثارة. واعتقد الجميع إن الإسرائيلى قد استمد قواه من آلهة الجبل الخامس، وهكذا أصبح من الصعب التخلص منه. "لكن اللحظة المناسبة ستحين" - هكذا قال لنفسه، فالآلهة ستنتهز الفرصة للتخلص منه. أما العقاب الإلهى المقدس فله هدف آخر، ووجود الأشوريين فى الوادى علامة على هذا.

... لماذا مئات السنين من السلام مهددة بالزوال؟!

وكانت لديه الإجابة : بسبب اختراع الكتابة البابلية.

فلقد أنشأت بلده شكلاً للكتابة يقبله الجميع ، حتى هؤلاء غير المؤهلين لاستخدامه . ويستطيع أى شخص أن يتعلمه فى وقت قصير، وقد يعنى هذا نهاية الحضارة .

كان "كبير الكهنة" يعرف هذا ، فمن بين جميع أسلحة الدمار التى يستطيع الإنسان ابتكارها، تعتبر "الكلمة" هى الأكثر إثارة للرعب والأقوى.

فالخناجر والرماح تترك آثارا من الدم، والسهام يمكن رؤيتها عن بعد، والسموم تكتشف فى النهاية ويتم تجنبها.

أما "الكلمة" فتستطيع التدمير دون أن ترك أية أدلة.

وإذا شاعت الشعائر المقدسة ، سيصبح فى إمكان الكثيرين أن يستخدموها ليحاولوا تغيير العالم ، وستصاب الآلهة بالتشوش .

وحتى تحين هذه اللحظة ، سينفرد الكهنة بمعرفة ذكرى الأسلاف وآثارهم التى سيتم تناقلها شفاهيا، شريطة أن تحفظ المعلومات فى السر.

وبدون هذا كنا سنحتاج سنوات أكثر من البحث لنتمكن من فك شفرة حروف الكتابة المصرية التى نشرها المصريون فى شتى أنحاء العالم.

وهكذا ينفرد الأشخاص المدربون جيداً، النساخ والكهنة، بالقدرة على تغيير المعلومات المكتوبة .

وثمة شعوب أخرى لها أساليب منقرضة لتسجيل التاريخ، لكن هذه الأساليب معقدة للغاية لدرجة أن أى إنسان خارج المناطق المستخدمة فيها هذه الأساليب ، لا يسعى إلى تعلمها.

أما ابتكار البابلية فله سبق واحد وهو إمكانية استخدامها فى أى بلد بشكل منفصل عن اللغة المتحدث بها.

وحتى الإغريق الذين يرفضون أى شئ لم يولد فى مدنهم ، تبنوا الكتابة البابلية وتداولوها فى صفقاتهم التجارية.

ولأنهم متخصصون فى تحويل كل شئ إلى حكايـــة ، أطلقوا على ابتكار البابلية اسماً يونانياً هو: "حروف الـــهجاء – ألفابيت".

وأصبحت الأســـرار المحميـــة طـــوال قـــرون مـــن الحضارة، مهددة بالتعرض إلى النور ولخطر الافتضاح.

ومقارنة بهذا، يصبح انتهاك (إيليا) لقداســـة المـــوت، بإعادته شخصاً ما من الضفة الأخرى لنهر الموت، حسبما كـان يقول المصريون، لا يعنى شيئاً. "فنحن نعاقب لأننـــا لـــم نعـد قادرين على حماية ما هو مقدس" هكذا فكـــر "كبـــير الكهنـــة". فالآشوريون عند أبوابنا، وسيعبرون الوادى ويدمرون حضـــارة أسلافنا ويتخلصون من مشروع الكتابة هذا.

وأدرك "كبير الكهنة" أن وجود العـــدو ليـــس مجـــرد مصادفة وإنما ثمن يجب دفعه. لقد خططت الآلهة لكـــل شـــئ بحرص بالغ، وهكذا لن يلاحظ أحد أنـــهم مســـئولون. وهكـــذا وضعوا على رأس السلطة حاكماً يـــهتم بالتجـــارة أكـــثر مـــن الجيش، وأيقظوا جشع الآشوريين ، وجعلـــوا الأمطـــار أكـــثر ندرة، وجلبوا كافراً ليقسم المدينة.

... قريباً ستندلع المعركة النهائية .

١٢

وستبقى "أكبار" بعد كل هذا ، لكن الخطر الذى كانت تشكله حروف الكتابة البابلية سيزول عن وجه الأرض للأبد.

بعناية نظف كبير الكهنة الحجر الذى يشير إلى بقعة منذ أجيال عديدة، وطأها الحاج الأجنبى فى المكان الذى حددته له السماء، ووجد بعدها المدينة .

"كم جميل هذا" هكذا فكر كبير الكهنة.

.. كانت الأحجار صورة لالهة: صلبة مقاومة .. قادرة على النجاة تحت كل الظروف، ولا تحتاج تفسير: لماذا كانت موجودة هناك.

وتنقل التقاليد الشفاهية أن مركز العالم يشير إليه حجر، وفى طفولته فكر كبير الكهنة أن يبحث عن موقع هذا الحجر.

احتضن الفكرة ونمت بداخله حتى هذه السنة، لكنه عندما رأى الاشوريين فى أعماق الوادى؛ أدرك أنه لن يحقق حلمه أبداً.

وليس هذا بالأمر المهم. لقد وقع على عاتق جيلـــى أن يُقدَموا كتضحية للآلهة الغاضبة لانتهاك قداستها.

ثمة أشياء فى تاريخ العالم لا يمكن تجنبها، ويجــب أن نقبلها. قطع على نفسه وعداً بأن يطيع الآلهة، ولن يبـــذل أيــة محاولة لإيقاف الحرب. ربما نكون قد وصلنا للنهاية، فليس مــن وسيلة لمواجهة الأزمات التى تتفاقم مع كل لحظة تمر.

حمل كبير الكهنة صولجانه وغادر المعبــد الصغــير. فقد كان لديه موعد لمقابلة قائد الجيش فى "أكبار".

* * *

كان بالقرب من الحائط الجنوبى عندما لحق به "إيليـا"، وقال له : لقد أعاد الله طفلاً من الموت، المدينة تؤمن بقدرتى.

أجاب كبير الكهنة: لابد أن الولد لم يمـــت "سـبق أن حدث هذا، يتوقف القلب ثم يعاود الخفق ثانية". اليــوم المدينــة كلها تتحدث عن هذا، وغــــدا سـيتذكرون أن الآلهــة قريبــة وتستطيع سماع ما يقولون، عندئذ ســـيصمتون ثانيـــة . والآن يجب أن أذهب، فالآشوريون يعدون للمعركـــة. قـــال (إيليـــا): اسمع ما يجب أن أقوله، بعد معجزة المســـاء الســـابق غفــوت خارج الأسوار لأننى كنت بحاجة لبعض الهدوء. عندئذ ظـــهر نفس الملاك الذى سبق ورأيته على الجبل الخامس، وأخـــبرنى أن "أكبار" ستدمرها الحرب.

قال كبير الكهنة: المدن لا تدمر. سيعاد بناؤها ســبعين مرة وسبعا، لأن الآلهة تعرف أين المكان الذى حـــددوه لـــها، ولأنهم يحتاجونها هناك .

* * *

اقترب الحاكم بصحبة جماعة من حاشيته، وسأل: ماذا تقول؟

أجاب (إيليا) : قلت يجب عليك أن تسعى للسلام.

قال كبير الكهنة "ببرود": إذا كنت خائفاً ، عد إلى المكان الذى جئت منه.

قال الحاكم: إيزابيل وملكها ينتظران الأنبياء الفارين ليذبحاهم، لكننى أرغب أن تخبرنى كيف تسلقت الجبل الخامس دون أن تدمرك نيران السماء.

شعر كبير الكهنة بضرورة أن يتدخل لينهى المحادثة.

فقد كان الحاكم يفكر بشأن التفاوض مع الآشوريين ، وربما يريد استخدام "إيليا" لتحقيق أهدافه.

قال كبير الكهنة: لا تنصت إليه، فعندما أحضروه إلى مجلس لأحاكمه، رأيته ينتحب من الخوف.

قال إيليا: كانت دموعى بسبب الشر الذى شعرت أننى سببته لكم.

فأنا لا أخشى سوى الله ونفسى . واعلموا أننى لم أفر من إسرائيل، وأننى على استعداد للعودة بمجرد أن يأذن الله لى وسوف أضع نهاية لأميرتكم الجميلة، وسينجو إيمان إسرائيل من التهديد أيضا.

قال كبير الكهنة "ساخراً": يجب أن يكون قلب المرء صلباً ليقاوم مفاتن إيزابيل. وبافتراض نجاح مسعاك، سنرسل امرأة أخرى ، قد تكون أجمل، كما سبق أن فعلنا قبل إيزابيل.

وكان كبير الكهنة يقول الحقيقة، فقبل مائتى عام نجحت أميرة من صيدا فى إغواء أكثر حكام إسرائيل حكمة :

"الملك سليمان"، وطلبت منه أن يبنى مذبحاً للإلهـــة "عشـــتار" واستجاب سليمان.

وبسبب هذا التدنيس للمقدسات ، اســتثار الله جيــوش البلاد المجاورة، وفقد سليمان أو كاد، عرشه.

نفس الشئ سيحدث لـــ "آخاب" زوج "إيزابيل" ، هكــذا فكر "إيليا"، وسيعيده الله ليكمل مهمته عندما يحين الوقت.

ولكن ما الفائدة من إقناع هؤلاء الرجال الذين يقفــون فى مواجهته؟

فهم يشبهون هؤلاء الذين رآهم ليلة أمس ساجدين فــى منزل الأرملة يتوسلون إلى آلهة الجبل الخامس. لن تسمح لــهم عاداتهم بالتفكير بأية طريقة أخرى.

* * *

قال الحاكم : لسوء الحظ يجب علينا أن نحترم قــانون الضيافة، وبدا كما لو كان قد نسى كلمات "إيليا" عــن الســلام، ولولا هذا لكنا عاونا إيزابيل فى مسعاها لوضع نهايــة لــهؤلاء الأنبياء.

قال "إيليا" : ليس ما تزعم هو ســبب الإبقــاء علــى حياتى. فأنت تعلم أننى سلعة قيمة، وتريد أن تعطــى إيزابيــل متعة قتلى بيديها. ولك أن تعرف أن الناس أمس، نســبوا لــى قوى خارقة ، فهم يظنون أننى قــابلت الآلهــة علــى الجبــل الخامس، وبالنسبة لك لن يزعجك أن تغضــب الآلهــة، لكنــك بالتأكيد لا رغبة عندك لإثارة سكان المدينة.

ترك الحاكم وكبير الكهنة "إيليا" يكلم نفســه ، وســارا باتجاه حوائط المدينة. عندئذ قرر كبير الكهنة أنه لا بد مـــن أن

يقتل النبي الإسرائيلي عند أول فرصة تسنح له، فهو حتى الآن مجرد سلعة تحولت إلى شخص مزعج.

* * *

وعندما راهما يبتعدان ، فقد "إيليا" الأمل، فماذا يستطيع أن يفعل لخدمة الله؟ عندئذ بدأ الصراخ في وسط الساحة: يا أهالي أكبار، ليلة أمس تسلقت الجبل الخامس وتحدثت إلى الالهة التي تقطن هناك، وعندما عدت نجحت في استعادة صبي من مملكة الموتى..!

اجتمع الناس حوله ، وشاعت الحكاية في جميع أرجاء المدينة.

وتوقف الحاكم وكبير الكهنة، وعادا ليشاهدا ما يحدث. كان النبي الإسرائيلي يقول بإنه قد رأى آلهة الجبل الخامس تعبد إلها أعظم.

قال كبير الكهنة: سآمر بقتله.

قال الحاكم: عندها سيثور الناس ضدنا، وكان كلام "إيليا" قد لاقى هوى في نفسه، من الأفضل أن ننتظر حتى يرتكب أي خطأ.

أكمل إيليا: وقبل أن أهبط الجبل ، كلفتني الآلهة بمعاونة الحاكم في مواجهة تهديد الاشوريين . أعرف أنه رجل شريف ويرغب في الإنصات إليّ. لكن الذين لهم مآرب في الحرب لن يسمحوا لي بالاقتراب منه.

قال رجل عجوز للحاكم : الإسرائيلي رجل مقدس ، فليس في إمكان أحد أن يتسلق الجبل الخامس دون أن تقتله

نيران السماء، لكن هذا الرجل فعل ذلك، والآن ها هو يُحيي الموتى.

قال عجوز آخر: صيدا، تاير، وكل مدن فينيقيا لها تاريخ من السلام.

ولقد مررنا بتهديدات أسوأ من هذه وتغلبنا عليها.

فى هذه الأثناء كان كثير من المرضى والمقعدين يقتربون مخترقين الزحام ليمسوا ثياب إيليا ويطلبون منه شفاء عللهم.

قال كبير الكهنة: قبل أن تتصح الحاكم، إشف المرضى، عندئذ سنصدق أن آلهة الجبل الخامس تساندك.

استدعى إيليا ما قال له الملاك ليلة أمس: ستتاح لك تلك القوى التى تمنح للناس العاديين.

قال كبير الكهنة بإصرار: المرضى يسألون العون، ونحن ننتظر.

قال إيليا: فى البداية يجب أن نسعى لتجنب الحرب، وإلا سيكون هناك مزيد من المرضى، وبحزم أكثر، إذا فشلنا.

قاطع الحاكم هذه المحادثة قائلاً: سيأتى "إيليا" معى، فلقد مسه الوحى المقدس. ورغم أنه لم يؤمن بوجود أية آلهة فوق الجبل الخامس، كان الحاكم فى حاجة لحليف يساعده لإقناع الناس بأن السلام مع الأشوريين هو الحل الوحيد.

* * *

وهم فى طريقهم لمقابلة قائد الجيش، قال كبير الكهنة لـ "إيليا": أنت لا تؤمن بأى شئ مما قلته توا.

قال "إيليا": أؤمن أن السلام هو السبيل الوحيد للنجاة، لكننى لا أؤمن بأن الجبل الخامس تسكنه الالهة. فلقد كنت هناك.

قال كبير الكهنة: وماذا رأيت؟

قال "إيليا": ملاك الرب. وقد رأيت هذا الملاك من قبل فى أماكن عديدة تواجدت بها، ولا وجود سوى لإله واحد.

ضحك كبير الكهنة وقال: هل تقصد، فى رأيك، أن نفس الإله الذى يرسل الرياح هو من ينبت القمح، رغم أنهما شيئان مختلفان تماماً؟. سأله إيليا: هل ترى الجبل الخامس؟ من أى جهة تنظر إليه يبدو مختلفاً رغم أنه نفس الجبل. وهذا هو الحال مع كل الخلق، فهم وجوه عدة لنفس الإله.

وصلوا إلى أعلى الجدار، ومن هناك يستطيعون رؤية معسكر الأعداء على مبعدة منهم. ففى الوادى المقفر تخطف الخيام البيضاء النظر. وفى وقت مبكر، عندما لاحظ خفر الحدود وجود الاشوريين عند مدخل الوادى، قال الجواسيس إن الأشوريين فى مهمة استطلاع.

واقترح قائد الجيش أن يأخذوا هؤلاء المستطلعين كاسرى ويبيعونهم كعبيد. بينما قرر الحاكم اتباع خطة أخرى وهى عدم القيام بشيء، وكان يراهن على أنه عند توطيد العلاقات معهم، قد يستطيع أن يفتتح سوقا جديدا لصناعة الزجاج فى أكبار.

بالإضافة إلى أنه لو كانوا متواجدين للتجهيز لحرب، فإنهم يعرفون أن المدن الصغيرة دائما ما تساند المنتصر، وفى

هذه الحالة تكون كل رغبة القادة الآشوريين هى المـــرور، دون أية مقاومة، إلى صيدا وتاير. تلك المدن التى تمتلـــك الــثروة والمعرفة.

وعسكر الجنود عند مدخل الوادى، وشيئاً فشيئاً توالـــى وصول التعزيزات. وزعم كبير الكهنة بأنه يعلم ســـبب ذلـــك، وهو أن بالمدينة بئراً هى الوحيدة طوال سبعة أيام ســـفر فـــى الصحراء. وإذا كان الأشوريون يخططون لغزو تاير وصيـــدا، سيحتاجون مياه هذه البئر لإمداد جيوشهم بها.

وعند نهاية الشهر الأول ، كان طردهم ممكناً.

وعند نهاية الشهر الثانى، كـــان بإمكـــان "أكبـــار" أن تكسب بسهولة، ومن ثم تفاوض على انسحاب مشرف للجنـــود الآشوريين.

وانتظروا أن تشتعل المعركـــة، لكنـــهم لـــم يبـــادروا بالهجوم.

وعند نهاية الشهر الخامس ، كانوا قادرين على كســـب المعركة، وقال الحاكم لنفسه : "سوف يـــهاجمون قريبـــاً جـــداً، لأنهم لا بد يعانون من العطش". وطلب من قـــائد الجيـــش أن يجهز استراتيجيات دفاعية، ويأمر رجاله بالتدريب الدائم تحسـباً لأى هجوم مفاجئ.

ورغم ذلك ظل تركيزه الأساســـى علـــى الترتيبـــات اللازمة لإحلال السلام. ومر نصـــف عـــام دون أن يتحـــرك الجيش الآشورى.

والآن بدأ يتلاشى التوتر الذى بلغ الذروة فـــى أكبـــار خلال الأسابيع الأولى من الاحتلال الآشورى . وانشغل النـــاس

بامور حياتهم، وعاد الفلاحون إلى حقولهم، والحرفيـــون إلـــى صناعة النبيذ والزجاج والصابون، وداوم التجار علـــى شــراء وبيع سلعهم.

وآمن الجميع بأن "أكبار" لن تهاجم العدو، وأن الأزمـــة ستنفرج عن طريق المفاوضات. وكان الجميع على يقين من أن الحاكم قد اختارته الآلهة، ولهذا يتخذ أصوب القرارات دائماً.

وعند وصول "إيليا" إلى المدينة ، أمر الحـــاكم بنشـــر الشائعات عن اللعنة التى جاء بها الأجنبى ، وهكذا إذا ما تـــأكد خطر الحرب يستطيع أن يلوم الأجنبى كســـبب رئيســـى فـــى الكارثة.

وسيقتنع سكان "أكبار" أنه بموت الإســـرائيلى ســـيعود الكون إلى حالته الطبيعية، عندئذ يستطيع الحاكم أن يبين أنه قـــد فات أوان مطالبة الآشوريين بالانسحاب، وسيأمر بقتل "إيليـــا"، ثم يبين لشعبه أن السلام أفضل الحلول.

وحسب وجهة نظره، سيدفع التجار - الذين يرغبـــون فى السلام - الآخرين إلى الموافقة على هذه الفكرة.

وخلال هذه الشهور كان الحاكم يحارب ضغوط كبـــير الكهنة وقائد الجيش اللذين طالبا بالهجوم فى الحال.

ولم تخذله آلهة الجبل الخامس أبداً، فبعد معجزة قيـــام الميت ليلة أمس، أصبحت حياة إيليا أكثر أهمية من إعدامه.

* * *

سأل قائد الجيش: لماذا هذا الأجنبى بصحبتك؟

أجاب الحاكم: لقد خصته الآلهة بنورها، وسوف يساعدنا على إيجاد أفضل الحلول، ثم غير الموضوع سريعاً وقال: عدد الخيام قد زاد اليوم.

قال قائد الجيش: وسيزداد أكثر فى الغد . ولو كنا هاجمناهم وهم مجرد حفنة جنود مستكشفين ما كانوا ليعودوا.

قال الحاكم: أنت مخطئ، بعضهم كان سيفر، وكانوا سيعودون للثأر لأنفسهم.

قال قائد الجيش بإصرار: عندما نؤجل جمع المحصول تتعفن الفاكهة. أما عندما نؤجل حل المشكلات فإنها تتضخم .

وبيّن الحاكم أن السلام فخر شعبه ، عم فينيقيا لثلاثة قرون . فماذا يمكن أن تقول الأجيال التى لم تولد إذا اضطررت لاعتراض مسيرة الرخاء؟!

قال إيليا: أرسل مبعوثاً للتفاوض معهم. فأعظم المحاربين هو مَنْ ينجح فى تحويل عدوه إلى صديق.

قال قائد الجيش : لا نعرف بدقة ماذا يريدون ، ولا نعرف هل يرغبون فى غزو مدينتنا . فكيف تستطيع التفاوض؟!

قال إيليا: ثمة علامات تهديد. فلا يوجد جيش يهدر وقته فى تدريبات عسكرية بعيداً هكذا عن بلده.

وكلما رأى الحاكم توافد مزيد من الجنود الآشوريين ، كان يفكر فى كمية الماء اللازمة لهؤلاء الرجال.

وعما قريب ستقف المدينة بكاملها بلا حول أو قوة أمام جيش العدو.

سأل كبير الكهنة قائد الجيش: هل نستطيع الهجوم الآن؟

قال قائد الجيش: نعم نستطيع . سنفقد كثيراً من الرجال، لأجل حماية المدينة. لكننا يجب أن نقرر سريعا.

قال الحاكم: لا يجب علينا ذلك.

قال إيليا: آلهة الجبل الخامس أخبرتنى أنه ما زال أمامنا وقت كافٍ للوصول إلى حل سلمي.

وبعد سماعه للحوار بين كبير الكهنة والإسرائيلى، ادعى الحاكم أنه موافق على الحل السلمي . فبالنسبة له لا فرق يذكر بين أن تخضع صيدا وتاير لحكم الفينيقيين أو الكنعانيين أو الآشوريين ، كل ما يهمه أن تستمر المدينة فى المتاجرة بمنتجاتها.

قال كبير الكهنة: يجب أن نهجم.

قال الحاكم: لننتظر يوماً آخر ، فربما تنحل الأمور من تلقاء نفسها. ويجب عليه أن يقرر فى الحال أى الوسائل أفضل لمواجهة تهديد الآشوريين. هبط الحاكم من فوق الجدار، واتجه إلى القصر سائلاً الإسرائيلى أن يرافقه. وفى الطريق تابع الناس من حوله : الرعاة يأخذون قطعانهم إلى الجبال، والمزارعون يذهبون إلى الحقول محاولين انتزاع الغذاء لهم ولعائلاتهم من هذه التربة المجدبة.

وكان الجنود يتدربون برماحهم، وبعض التجار الوافدين جديداً يعرضون بضائعهم فى الساحة.

ومما يثير الدهشة أن الآشوريين لم يغلقـــوا الطريــق الذى يقطع الوادى من أحد طرفيه للآخر ، وكان النجار يمـرون ببضائعهم ويدفعون الرسوم المفروضة على المرور.

سأل إيليا: لماذا لا يغلقون الطريق طالما هم يمتلكـــون مثل هذه القوة؟

قال الحاكم: الإمبراطورية الأشورية تحتاج المنتجــات التى تصل فى سفن صيدا وتـــاير. وإذا مــا تعــرض حكــام المدينتين للتهديد، سيعرقلون مرور المؤن والإمدادات وســتكون العواقب أوخم من الهزيمة العسكرية.

لابد من وجود طريقة لتجنب الحرب.

قال إيليا: نعم. إذا كانوا يريدون المـــاء؛ نســتطيع أن نبيعه لهم.

لم يقل الحاكم أى شـــئ ، لكنــه أدرك أنـــه يســتطيع استخدام الإسرائيلى كسلاح ضد هؤلاء الذيـــن يرغبـون فـــى الحرب. لأنه إذا أصر كبير الكهنـــة علـــى الدعـــوة لمحاربـــة الآشوريين ، فإن "إيليا" هو الوحيـــد القـــادر علـــى مواجهتـــه. واقترح الحاكم على "إيليا" أن يمشيا معا ليتبادلا الحديث.

١٣

بقى كبير الكهنة فوق الجدار يتابع العدو.

سأله القائد: ماذا فى وسع الآلهة لتصد الغزاة؟

لقد قدمت القرابين عند الجبل الخامس وسألت الآلهة أن ترسل لنا زعيماً أكثر شجاعة. يجب علينا أن نتصرف مثل إيزابيل. يجب أن نضع نهاية للأنبياء . فمجرد إسرائيلى بسيط، كان محكوماً عليه بالإعدام، اليوم يستخدمه الحاكم لإقناع الناس بالسلام.

نظر القائد إلى الجبل وأكمل : نستطيع أن ندير اغتيال "إيليا"، ونستخدم جنودى لإزاحة الحاكم عن موقعه.

قال كبير الكهنة: سآمر بقتل إيليا. أما بالنسبة للحاكم فلن نستطيع أى شئ، أسلافه هم أصحاب السلطة والسلطان لأجيال عديدة.

كان جده زعيماً لنا، ونقل السلطة لابنه الذى نقلها إلى ابنه..

قال القائد: لماذا تمنع التقاليد أن نأتي بشخص أخر أكثر كفاءة للسلطة؟

قال كبير الكهنة: التقاليد موجودة لحفظ النظام فى العالم، وإذا تلاعبنا بها سيختل العالم ذاته.

نظر كبير الكهنة حوله، كانت السموات والأرض والجبال والوادى، كل شئ يقوم بما قدر له. قد تهتز الأرض، وأحياناً - مثل الآن - تمر فترات طويلة دون أمطار، ورغم ذلك تظل النجوم بلا اختلال فى أماكنها ولا تسقط الشمس على رءوس الناس. وسبب هذا أن الناس تعلموا - منذ الطوفان - أنه من المستحيل تغيير نظام الخلق.

وفى الماضى لم يكن ثمة شئ سوى الجبل الخامس. والآلهة والناس تعيش سوياً ، تتجول فى حدائق الفردوس وتتبادل الحديث والضحك. لكن اقترفت المخلوقات الإنسانية الخطيئة وطردتهم الآلهة، ولم تجد مكاناً ترسلهم إليه، فخلقت الأرض تحيطها الجبال، وهكذا تستطيع احتجازهم هناك، وجعلت السماء فوقهم، لتتأكد أن الناس للأبد ستتذكر أنهم فى مرتبة أدنى كثيراً من ساكنى الجبل الخامس.

ورغم ذلك اهتمت الآلهة بأن تترك طريقاً مفتوحاً للعودة، إذا ما تبعه البشر سيعودون ذات يوم إلى قمة الجبل. ولن تُنسى هذه القاعدة أبداً، لأنهم كلفوا الكهنة والحكام بحفظها حية فى عقول الناس.

ويشترك كل الناس فى نفس الاعتقاد بأن إزاحة العائلات التى اختارتها الآلهة عن السلطة؛ سيجعل القبر هو المصير.

والآن لا أحد يذكر لماذا هذه العائلات قد اختيرت ، رغم أنه استقر بداخلهم أنها عائلات مقدسة.

و(أكبار) موجودة منذ مئات السنين، ولم يتول شئونها سوى أسلاف هذا الحاكم. ولقد تم غزوها مرات عديدة ، وسيطر عليها الجبابرة والبربر، وبمرور الزمن رحل الغزاة أو طردوا. بعد ذلك يعود النظام القديم ويعود الناس إلى الحياة التي سبق أن عرفوها.

ولم تكن سيطرة الكهنة إلا للحفاظ على هذا النظام.

فثمة قدر للعالم تحكمه القوانين . ولقد مضى عصر محاولة إدراك ماهية الآلهة. والآن يجب احترامها وتنفيذ مشيئتها، فهى متقلبة المزاج وتغضب بسهولة. فبدون الحصاد لن تخرج الأرض أية فاكهة. وإذا ما أغفلت بعض القرابين، ستصاب المدينة بأمراض خطيرة.

وإذا ما أثير غضب إله الطقس، يمكنه أن يمنع نمو القمح والإنسان. (مبارك هو الجبل الخامس) ، قالها كبير الكهنة للقائد، فمن فوق قمته تسيطر الآلهة على الوادى وتحمينا. ولابد لديها خطة خالدة لـ (أكبار) . سيَقتل الأجنبى أو يعود إلى أرضه، وسيموت الحاكم ذات يوم، وسيكون ابنه أكثر حكمة منه وعندئذ سيتلاشى كل ما عانينا اليوم منه.

قال القائد: نحن فى حاجة إلى حاكم جديد. فإذا ما ظللنا تحت إمرة هذا الحاكم سندمر.

وكان كبير الكهنة يعرف أن هذه رغبة الآلهة، لتضع نهاية للكتابة البابلية، لكنه لم ينطق بشئ . كان مسرورا لأن

لديه دليلاً آخر بأنه دائماً ما تحقق القواعد - شئنا أم أبينا - قدر الكون المحتوم.

* * *

رافق إيليا الحاكم عبر المدينة ، يشـــرح لـــه خططـــه لتحقيق السلام، ذلك بوصفه مستشارا للحاكم.

وعندما وصلا إلى الساحة، اقترب مزيد من المرضى، لكن "إيليا" قال لهم إن آلهة الجبل الخامس حرمت عليه أن يقــوم بشفاء الناس. وبنهاية فترة الظهيرة ، عاد إلى منزل الأرملـــة . وكان طفلها يلعب فى الشارع . شكر "إيليـــا" الله لأنـــه جعلـــه وسيلة تتحقق بها معجزاته.. كانت الأرملة فى انتظاره لتعد لـــه وجبة المساء. وفاجاه وجود زجاجة نبيذ على الطاولة.

قالت الأرملة : لقد أحضر الناس بعض الهدايا لإدخـــال السرور إلى قلبك ، أما أنا فأود أن تسامحنى علـــى معـــاملتى الجائرة لك.

تساءل "إيليا"، دهشا ، أى جور؟! ألا ترين أن كل شـــئ هو جزء مما قدره الرب.

ابتسمت الأرملة ، ولمعت عيناها ، ورأى لأول مـــرة أنها جميلة.

.. كانت تكبره بعشر سنوات على الأقل، لكن عند هذه اللحظة شعر بتعاطف شديد معها، ولم يكن معتادا على مثل هـذا الشعور. وكان ممتلئا بالخوف فلقـــد تذكـــر عينـــى إيزابيـــل، والأمنية التى تمناها وهو يغادر قصر آخاب؛ بأن يتزوج امـــرأة من لبنان.

قالت المرأة: رغم أن حياتى بلا نفع ، فعلى الأقل لدى ابنى، وسوف تبقى قصته فى ذاكرة الناس لأنه عاد من مملكة الموت.

قال إيليا: حياتك ليست بلا نفع. لقد جئت إلى "أكبار" بناءً على أمر من الله ، واستضفتنى . وأنا متأكد أنه إذا ما تذكر شخص ما قصة ابنك فسيذكرك كذلك.

ملأت المرأة قدحين ، وشربا نخب الطفل الذى كان يجلس، ونخب نجوم السماء.

قالت الأرملة: جئت من بلد بعيد، متبعاً علامات رب لم أعرفه لكنه أصبح الآن إلهى . وكذلك عاد ابنى من أرض بعيدة ، وأصبحت لديه قصة يقصها لأحفاده، وكذلك الكهنة سيحفظون كلماته وينقلونها إلى الأجيال القادمة. ووحدها ذاكرة الكهنة هى التى تحفظ ماضى المدن : مرات احتلالها، الأرباب القدامى ، المقاتلين الذين دافعوا عن الأرض بدمائهم. ورغم أنه – الآن – استجدت وسائل لتسجيل الماضى ، ووضع سكان "أكبار" كل ثقتهم فى ذاكرة كهنتهم . فالمرء يستطيع كتابة أى شئ يختاره ، لكنه لن يتذكر أشياء لم تحدث قط.

أما أنا فماذا لدى لأحكيه ؟ استطردت المرأة وهى تتأمل القدح الذى كان "إيليا" قد شربه سريعاً ، فأنا لا أتمتع بقوة أو جمال إيزابيل، وحياتى تشبه حياة الآخرين : زواج رتّب له أبى وأمى عندما كنت طفلة ، مهام منزلية عندما اشتد عودى، ممارسة طقوس العبادة فى الأيام المقدسة، وكان زوجى دائم الانشغال عنى بأشياء أخرى، فعندما كان حياً لم

نتحدث عن أى شئ مهم، فقد كان غارقاً كلية فى تجارته، واعتنيت بالمنزل . وبهذه الكيفية أمضينا أبهى سنوات عمرنا.

وبعد موته لم يتبق لى أى شئ سوى الفقر وتربية ابنى. وعندما يصبح رجلاً سيعبر البحار، ولن يهتم بحالى أحد. ولا أشعر إزاء ذلك بالكره أو الاستياء . أعاد "إيليا" ملء قدحه، وكان قلبه قد بدأ يطلق بعض إشارات التنبيه ، فقد كان مستمتعاً بوجوده إلى جوار هذه المرأة.

وقد يكون الحب تجربة مخيفة أكثر من الوقوف أمام جنود آخاب، وأحدهم يصوب سهماً إلى قلبه، لأنه إذا ما أصاب السهم قلبه فسيموت وسيتولى الرب الباقى، أما إذا أصاب الحب قلبه فسوف يتحمل وحده تبعات ذلك.

"لكم تقت إلى الحب فى حياتى" ، هكذا أسر إلى نفسه، وها هو الآن أمامه، وبلا أدنى شك كان هناك ، وكل ما عليه ألا يهرب منه، كانت روحه تهمس له بأن ينساه بأسرع ما يمكن.

وعاد عقله إلى اليوم الذى جاء فيه إلى "أكبار" بعد طرده من "كريث" . كان متعباً جداً وظمآناً لدرجة أنه لا يستطيع أن يتذكر أى شئ سوى اللحظة التى آفاق فيها من الإغماء على رؤيته لقطرات الماء تسقط فوق شفتيه .

كان وجهه قريباً جداً من وجهها، أقرب مما سبق أن كان من وجه أية امرأة فى حياته كلها. ولاحظ أن لها نفس عينى إيزابيل الخضراوين ولكن ببريق مختلف. كما لو كانت تستطيع أن :مكس أشجار الأرز والمحيط الذى طالما حلم به،

ولم يعرفه قط - كيف يمكــن أن يكــون؟! - وكذلــك تعكــس روحها. قال لنفسه : كم سيسعدنى أن أقول لها هذا، لكننـــى لا أعرف كيف. إن الحديث عن عشق الرب لأسهل من هذا.

أخذ "إيليا" رشفة أخرى. واستشعرت أنها قد تفوهـــت بشئ أزعجه، ولهذا قررت أن تغير الموضوع، وسألته : هـــل تسلقت الجبل الخامس؟

.. أوما برأسه.

وكان تود لو سألته عما رآه هناك فى الأعالى ، وكيـف فر من نيران السماء.

لكنه بدا غير راغب فى مناقشة هذا الأمر.

همست لنفسها : أنت نبى. إقرأ ما بقلبى.

فمنذ مجيء الإسرائيلى لحياتها تغير كل شئ . حتـــى الفقر أصبح من اليسير تحمله . فهذا الأجنبى أحيا بداخلها شـيئاً لم تشعر به من قبل: الحب. وعندما سقط ابنها مريضاً، تحـدت كل الجيران فى سبيل أن يبقى فى بيتها. كانت تعـــرف أن الله بالنسبة له، أهم من أى شئ آخر موجود تحت هـــذه الســماء. وأدركت أن هذا حلم مستحيل تحقيقه ، فالرجل الموجود أمامــها الآن قد يرحل فى أية لحظة ليُريق دم إيزابيل ، وبعدهــا لــن يعود أبداً ليحكى ما حدث.

ورغم كل هذا استمرت تحبه ، لأنها لأول مــرة فــى حياتها عرفت الحرية.

فهى تستطيع أن تحبه حتــى دون أن يعــرف بــهذا ، وليست بحاجة لإذن منه كى تشعر بافتقاده ، لتفكر به فى كـــل

لحظة من اليوم، لتنتظره عند وجبة المساء ، ولتقلق من المؤامرات التى قد ينسجها بعض الناس ضد هذا الأجنبى.

هذه هى الحرية : أن تشعر بما يرغبه القلب بلا أدنى تفكير فى رأى الآخرين. لقد تحدث جيرانها وأصدقاءها عندما تعلق الأمر بوجود الغريب فى منزلها، لكنها لم تكن بحاجة لتحدى نفسها.

شرب إيليا شربة من النبيذ، واستأذنها وذهب إلى حجرته. خرجت وشعرت بالابتهاج عندما رأت ابنها يلعب أمام المنزل، وقررت أن تذهب فى جولة قصيرة.

.. كانت حرة ، لأن الحب يحرر الناس.

* * *

حدق "إيليا" فى جدار حجرته لفترة طويلة . وفى النهاية قرر أن يستحضر ملاكه، فقال: روحى فى خطر. ولم يقل الملاك أى شئ.

وكان "إيليا" متشككاً فى جدوى استكمال المحادثة، لكن أوان التراجع فات. فهو لا يستطيع أن يستدعيه بلا سبب.

قال "إيليا": عندما أكون مع هذه المرأة أشعر أننى لست على ما يرام.

أجاب الملاك: العكس هو الصحيح. وهذا ما يزعجك لأنك لا تستطيع التوقف عن حبها.

شعر "إيليا" بالخجل، لأن الملاك يعرف ما يعتمل بروحه.

قال "إيليا": الحب خطير.

قال الملاك: جدا، وماذا بعد؟

وفجأة اختفى.

ولم يكن الملاك يشك بأن روح "ايليا" تتعذب . نعم - فهو يعرف ماهية الحب، فلقد رأى "آخاب" ملك إسرائيل يخذل الرب لأن إيزابيل ، أميرة صيدا، احتلت قلبه.

وسبق أن اخبرتنا حكايات الأقدمين بأن الملك سليمان كاد أن يفقد عرشه بسبب امرأة أجنبية ، والملك "داود" كاد أن يرسل أحد أعز أصدقائه للموت بعدما أحب زوجة هذا الصديق، وبسبب "داليلا" سجن "شمشون" واقتلع الفلسطينيون عينيه.

كيف لا يعرف ما هو الحب ، والتاريخ مملوء بالأمثلة المأساوية .

وحتى إذا لم تكن ملماً بالكتاب المقدس، فلديه المثال من أصدقائه وأصدقاء أصدقائه الذين قضوا لياليَ طويلة في الانتظار والسهر والعذاب. وهو شخصياً إذا كانت له زوجة في إسرائيل، كان من الصعب عليه مغادرة مدينته عندما أمره الله، وربما تسبب هذا في موته.

قال في نفسه: أحارب في معركة عبثية ، فالحب سيكسب المعركة، وسوف أحبها طوال حياتي. يا الله - أعدني لإسرائيل كي لا أقول لهذه المرأة ما أشعر به ، لأنها لا تحبني وستقول لي بأن قلبها مدفون إلى جوار جسد زوجها البطل.

١٤

فى اليوم التالى قابل "إيليا" القائد ثانيـــة، وعــرف أن مزيداً من الخيام الأشورية قد شُيدت.

سأل "إيليا" : كم عدد المقاتلين؟

قال قائد الجيش: لا أعطى أية معلومات لعدو إيزابيل.

قال "إيليا": لكننى مستشار الحاكم. لقد عيننى مســاعداً له ظهيرة أمس. وقد أُعلمت بهذا. ولهذا فأنت مضطر للإجابــة عن سؤالى .

وشعر القائد برغبة ملحة فى إنهاء حياة "إيليا".

لكنه أجاب فى النهاية : المقاتلون الآشوريون ضعــف عددنا، لديهم مقاتلان مقابل كل مقاتل لدينا.

وكان "إيليا" يعرف بأن العدو يحتاج إلــى قــوة أكــبر بكثير لينجح فى مهمته.

قال "إيليا": نحن نقترب مــن اللحظــة المثاليــة لبــدء مفاوضات السلام.

وسوف يدركون أننا كرماء، وسنتوصل إلى شروط أفضل. فأى قائد يعرف أنه لكى تغزو مدينة ، تحتاج لخمسة مهاجمين مقابل كل مدافع واحد.

قال القائد: إذا لم نهاجم الأن، سيصلون لهذا العدد.

قال إيليا: برغم كل خطوط إمدادهم ، سيعجزون عن توفير مياه لكل هذا العدد من الرجال، وستحين اللحظة المناسبة لنرسل رسلنا.

قال القائد: أية لحظة تعنى؟!

قال إيليا: سنترك الأشوريين حتى يزيد عددهم قليلاً. وعندما يتأزم الموقف سوف يضطرون للهجوم، لكن فى ظل نسبة (٣: ١) أو حتى (٤: ١) سيعرفون أن المعركة ستنتهى بهزيمتهم.

عندئذ يعرض رسلنا السلام والمرور الأمن وبيع المياه. هذه خطة الحاكم. لم يقل القائد اى شئ ، وترك إيليا يرحل. وقال فى نفسه: حتى لو مات إيليا، قد يظل الحاكم مصراً على هذه الفكرة، وقرر بينه وبين نفسه أنه إذا ما وصل الموقف إلى الحد الذى يحتم عليه قتل الحاكم والانتحار بعدها، فسيفعل ، لأنه لا يرغب فى أن يشهد غضب الآلهة وانتقامها. وبرغم ذلك وتحت أى ظرف، لن يسمح بتعرض أبناء شعبه للخيانة فى مقابل المال.

* * *

بكى إيليا وهو يدعو: يا الله ، أعدنى مرة أخرى إلى أرض إسرائيل – وتكرر هذا كل ظهيرة وهو يمشى فى الوادى – ولا تترك قلبى حبيساً فى " أكبار".

وفعل مثلما اعتاد الانبياء أن يفعلوا، حسـبما عـرف وهو طفل، وبدأ يضرب ظهره بالسوط كلما فكر فى الأرملـة. وأصبح ظهره مثل اللحم النيئ، وعاني مـن الحمـى طـوال يومين. وعندما آفاق كان وجه المرأة أول شئ رآه. وكانت قـد دهنت جروحه بالمرهم وزيت الزيتون. ولأنه كان أضعف مـن أن يهبط درج السلم! كانت تحضر الطعام إلى حجرته.

* * *

وبمجرد أن استعاد عافيته ، عاود "إيليا" التجـول فـى الوادى ، وعاود دعاءه : يا الله أعدني إلـى أرض إسـرائيل ، قلبي حبس فى "أكبار" لكن جسدى يستطيع استكمال الرحلة.

وظهر الملاك. لم يكن ملاك الله الذى سبق ورآه علـى الجبل. لكنه كان الملاك الذى يحرسه وكان معتاداً على صوته.

قال الملاك: الله ينصت لصلوات الذين يسألون إبعـاد البغضاء عنهم، لكنه يتجاهل هؤلاء الراغبين فى الفـرار مـن الحب.

* * *

كان ثلاثتهم يجتمعون كل ليلة على العشاء، كما وعـد الرب، ولم ينفد الدقيق من البرميل ولا الزيت من الوعاء.

ونادراً ما كانوا يتحدثون أثناء الأكل. وذات ليلة سـأله الصبى:

ماذا يكون النبى؟!

قال "إيليا": إنه الشخص الذى ينصت لنفس الأصـوات التى اعتاد سماعها فى طفولته. ولا يزال يؤمن بـها . وبـهذه الطريقة يستطيع معرفة أفكار الملاك.

قال الصبى: أعرف ما تتحدث عنه – فلدى أصدقاء لا يستطيع غيرى أن يراهم.

قال "إيليا" : لا تنسهم أبدا – حتى ولو دعاهم الكبار بالخيالات الصبيانية ، لأنك بهذه الطريقة ستعرف دائماً إرادة الرب.

قال الصبى: سأنفذ إلى المستقبل مثل العرافين البابليين.

قال "إيليا": الأنبياء لا يعرفون المستقبل . إنهم ينقلون الكلمات التى أوحى بها الله إليهم فى اللحظة الحالية. وهذا هو سبب وجودى هنا. ولا أعرف متى سأعود إلى وطنى. وهو لن يطلعنى على ذلك طالما لا ضرورة له.

أصبحت عينا المرأة حزينتين ، وقالت: نعم – سيرحل ذات يوم.

* * *

توقف "إيليا" عن البكاء والتوسل إلى الله. لأنه قرر أن يصطحب الأرملة وابنها معه، عندما تحين لحظة الرحيل عن " أكبار" . لكنه لن يقول أى شئ حتى يحين الوقت. فلقد استغرق هو نفسه وقتا طويلاً ليدركها. وإذا رفضت سيكون أفضل. فعندها يستطيع أن يهب نفسه كلية لطرد "إيزابيل" وإعادة بناء إسرائيل ؛ فمثل هذه الأشياء ستشغل عقله لدرجة ستجعله لا يفكر فى الحب.

"الله هو من يرعانى" ، قالها "إيليا" ، مستعيدا صلاة قديمة للملك داود، "فهو يحفظ روحى ويرشدنى إلى حيث توجد

المياه"، ولن يجعلني أنسى معنى حياتي. قال هذا بكلمات خاصة كنهاية للصلاة.

ذات ظهيرة عاد إلى البيت مبكرا عن المعتاد، ليجد الأرملة جالسة في مدخل البيت ، فسألها : ماذا تفعلين؟

قالت: لا شئ.

قال لها : إذن.. تعلمي شيئا . ففي هذا الوقت توقف كثير من الناس عن الحياة، فهم لا يغضبون، ولا يبكون، فقط ينتظرون أن يمر الوقت. لا يقبلون تحديات الحياة، وهكذا لم تعد الحياة تتحداهم.

وها أنت الآن تمرين بنفس المخاطرة . انفعلي، واجهي الحياة. لكن لا تتوقفي أبدا عن الحياة.

قالت: أصبح لحياتي معنى ثان ، ونظرت لأسفل، منذ مجيئك هنا.

* * *

لجزء من الثانية شعر أنه يستطيع أن يفتح قلبه لها ويصارحها ، لكنه قرر ألا يخاطر. فلابد أنها تشير إلى شئ آخر.

قال لها: ابدأي بفعل شئ ما . قال هذا كمحاولة لتغيير الموضوع، وبهذه الطريقة لن يكون الوقت حليفا أو عدوا.

قالت: لكن ماذا استطيع أن أتعلم؟

فكر "إيليا" لدقيقة ثم قال: الكتابة البابلية. ستكون مفيدة لك إذا ما سافرت يوما ما.

وقررت المرأة أن تهب نفسها كلية، روحـــا وجسـدا للدراسة. ورغم أنها لم تفكر قط فى مغادرة "أكبار" ، جعلتـــها الطريقة التى يتحدث بها تظن أنه ربما يفكر فـــى اصطحابـها معه.

ومرة أخرى شعرت أنـــها حـــرة ، واسـتيقظت فـــى الصباح وجابت شوارع المدينة وعلى شفتيها ابتسامة.

١٥

"ما زال إيليا على قيد الحياة". قال القائد لكبير الكهنة. وبعد شهرين لن تنجح فى قتله.

قال كبير الكهنة : فى كل "أكبار" لن يقبل أى إنسان أن ينفذ هذه المهمة، فالإسرائيلى يعتنى بالمريض ويزور المسجون ويطعم الجائع؛ وعندما يكون ثمة نزاع بين جارين ، يلجآن إليه. الجميع يقبلون أحكامه لأنها عادلة.

أما الحاكم فيستخدمه لمساندته بين الناس. لكن لا يدرك ذلك أحد.

فالتجار لا يرغبون فى الحرب. وإذا وجد الحاكم سبيلاً لإقناع الناس بأن السلام هو الحل الأمثل ، فلن ننجح أبداً فى طرد الأشوريين.

يجب قتل "إيليا" فى الحال.

وأشار كبير الكهنة إلى الجبل الخامس، كانت قمته مغطاة بالسحب كما هو الحال دائماً، وقال: لن تسمح الآلهة

لقوة أجنبية أن تنتهك بلدها. ستفعل شيئاً ما، وسوف نقتنص هذه الفرصة عندما تسنح.

سأله القائد: أى فرصة تعنى؟

قال كبير الكهنة: لا أعرف. لكننى سأظل يقظا فى انتظار العلامات. وحتى ذلك الحين لا تعط أية معلومات أخرى حقيقية عن القوات الآشورية. وعندما تسأل قل: إن النسبة بين جنود الغزاة وجنودنا ما زالت (٤ : ١)، وأثناء ذلك استمر فى تدريب قواتك.

قال القائد: ولماذا يجب على القيام بذلك؟ سوف نخسر المعركة إذا وصلت النسبة إلى (٥ : ١).

قال كبير الكهنة : لن يحدث هذا ، بل سنصبح متساوين ، وعندما تبدأ المعركة لن نقاتل عدوا أدنى منا، ولن نوسم بأننا مثل الجبان الذى لا يؤذى سوى الضعيف – ستواجه "أكبار" خصماً فى مثل قوتها ، وستكسب المعركة بفضل اختيار قائدها للحظة الصحيحة.

ورغم ضجره بهذا اللغو الفارغ، قبل القائد العرض. وبداية من هذه اللحظة بدأ يحجب المعلومات عن الحاكم و"إيليا".

١٦

مر شهران آخران. وذات صباح بلغت نسبة الجنـــود الآشوريين لجنود "أكبار" الحد المنذر بالخطر (٥ : ١). وهـــذا يعنى أنهم يستطيعون الهجوم عند أية لحظة.

ولبعض الوقت شك "إيليا" بأن القائد كان يكذب بشـــأن قوات العدو، ورغم ذلك قد يكون هذا فى صالحه. فعندما تصـل النسبة للحد الحرج سيكون من السهل إقناع الناس بأن الســلام هو الحل الوحيد.

وكانت هذه هى الأفكار التى شغلته وهو متوجه إلـــى الساحة منذ أسبوع، ليفض النزاعات بين سكان المدينـــة. وفـــى العادة كانت موضوعات هذه النزاعات هى: مشـــاجرات بيـــن الجيران، عجائز يرفضون دفع ضرائبهم، تجار يشعرون بأنـهم تعرضوا للغش فى معاملاتهم التجارية.

وكان الحاكم حاضراً هناك، فقد اعتاد الظـــهور مـــن حين لآخر ليتابع عمل "إيليا".

وتلاشى الشعور بعدم الارتياح الذى تملك النبى تجاه الحاكم. فلقد اكتشف أنه رجل حكيم ، يهتم بحل المشكلات قبل ظهورها، وذلك رغم أنه لم يكن روحانيا، وكان يخشى الموت بشدة.

وفى مناسبات عديدة كان يفرض سيادة القانون على مشاوراته مع "إيليا". بينما فى أوقات أخرى ، و"إيليا" غير موافق على أحد القرارات، كان يكتشف بمرور الوقت أن الحاكم على حق.

وأصبحت "أكبار" نموذجاً للمدينة الفينيقية الحديثة.

وابتدع الحاكم نظاماً ضريبياً عادلاً، وأصلح من حالة شوارع المدينة. وكذلك فرض - بفطنة - رسوماً على السلع.

وذات مرة طلب "إيليا" من الحاكم أن يمنع استهلاك الخمور والبيرة، لأن معظم الحالات التى يستدعى لفضها كانت بسبب ممارسة أشخاص مخمورين للعنف.

وقال الحاكم له: إن مدينة ما تعد عظيمة عندما يسود مثل هذا النوع من التفكير.

وحسب التقاليد، تسعد الآلهة عندما يمتع الناس أنفسهم بعد يوم من العمل، ولهذا تحمى السكارى. وبالإضافة إلى ذلك، فالمدينة مشهورة بإنتاج أجود أنواع الخمور فى العالم، وسوف يتشكك الأجانب فى الأمر إذا ما وجدوا سكان البلد لا يستهلكون ما ينتجونه من شراب.

احترم "إيليا" قرار الحاكم، ووافقه على أن الناس السعداء ينتجون أكثر. وقال الحاكم لـ "إيليا" قبل أن يذهب

ليمارس مهامه: لا حاجة بك لبذل مجهود كبير، فالمستشار يساعد الحاكم بأفكاره ولا شئ أكثر من هذا.

قال "إيليا": أفتقد وطنى وأرغب فى العودة. لكننى طالما أشعر أننى ذو نفع، أنسى أننى أجنبى.

وأسر لنفسه "ومن الأفضل أن أتحكم فى حبى لها".

* * *

بدأت المحكمة تجتذب حضورا كبيرا يبدى انتباها غير مسبوق لما يحدث.

وبدأ الناس يجتمعون: بعضهم عجائز لا يستطيعون العمل فى الحقول، جاءوا ليبدوا استحسانهم أو سخريتهم من قرارات "إيليا"، وبعضهم متورط مباشرة فى الموضوعات التى تناقش، إما لأنهم ضحايا أو يتوقعون الاستفادة من جلسات المحاكمة. وهناك كذلك النساء والأطفال، وهم بلا عمل يشغلهم ويحتاجون لملء أوقات فراغهم. وبدأ "إيليا" يمارس مهامه منذ الصباح، وكانت أول قضية لراعى غنم حلم بكنز مدفون بالقرب من الأهرامات فى مصر، ويحتاج للمال ليسافر إلى هناك.

ولم يسبق "لإيليا" أن ذهب إلى مصر، لكنه يعرف أنها بعيدة جداً، وقال إنه من الصعب أن تتوفر للمرء الوسائل اللازمة، ولكن إذا باع الراعى أغنامه ليدفع مقابل تحقيق حلمه؛ سوف يجد بالتأكيد ما رآه.

والقضية الثانية كانت لامرأة ترغب فى تعلم فنون السحر الإسرائيلية، فقال "إيليا" إنه ليس معلماً، بل مجرد نبى.

وبينما كان يتدبر إحدى القضايا ليصل إلى حل فيها، وكانت تتناول فلاحاً سب زوجة رجل أخر، اندفع جندى عبر الزحام، وتوجه إلى الحاكم، وقال هذا الوافد الجديد وهو يتصبب عرقا: أمسك أحد الجنود جاسوساً وأحضره إلى هنا.

سرت رعدة فى الجماهير، فهذه هى المرة الأولى التى سيشهدون فيها مثل هذا النوع من المحاكمات.

صرخ أحد الأشخاص: الموت ! الموت للعدو.

ووافق جميع الحضور، وصاحوا معلنين ذلك.

وفى طرفة جفن انتشر الخبر فى جميع أنحاء المدينة، وامتلأت الساحة بالناس. وبالكاد تم الفصل فى القضايا الأخرى، فمن حين لآخر كان أحدهم يقاطع "إيليا" ويسأل عن الأجنبى الذى أحضروه.

وكان إيليا يقول : لا أستطيع الفصل فى هذه القضية، فهى شأن من شئون السلطة فى "أكبار".

سأل رجل اخر : لأى غرض جاء الاشوريون إلى هنا؟ ألا يدركون أننا عشنا فى سلام طوال أجيال عديدة؟

صرخ آخر: لماذا يريدون الاستحواذ على مياهنا ؟ لماذا يهددون مدينتنا؟

وطوال شهور لم يجرؤ أحد على الحديث علنا عن وجود العدو. رغم أن الجميع يرون هذا العدد المتزايد من الخيام التى تنصب بامتداد الأفق.

ورغم حديث التجار عن الحاجة إلى بدء مفاوضات السلام فى الحال، رفض الناس فى (أكبار) أن يصدقوا أنهم يعيشون تحت تهديد بالغزو .

ومنذ الغزو الخاطف الذى قامت به قبيلة غير مهمـــة، والحرب موجودة فقط فى ذاكرة الكهنة. إنهم يتحدثون عن بلـــد تدعى مصر، وعن خيولها وعجلاتها الحربية وآلهتها التى تشبه الحيوانات.

لكن كل هذا حدث منذ زمن بعيد، ومصر لم تعد بلـــدا استعماريا، وجنودها بجلودهم الداكنة ولغتهم الغريبة عادوا إلـــى وطنهم.

والأن يسيطر سكان "صيدا" و"تـــاير" علـــى البحـــار، ويشيدون إمبراطورية جديدة حول العالم. ورغم أنهم حـاولوا أن يكونوا محاربين، فقد اكتشفوا طريقة جديدة للحرب: التجارة.

سأل الحاكم "إيليا" : لماذا أنتم مضطربون؟

قال "إيليا": لأنهم يشعرون بأن شيئا ما قد تغير. وكلانـــا يعرف أنه فى أية لحظة مـــن الآن، يســـتطيع الآشـــوريون أن يغيروا علينا .

وكلانا يعرف أن القائد قد كذب بشـــأن عـــدد قـــوات العدو.

قال الحاكم: لكنه ليس بمجنون ليخـــبر أى شـــخص ، ولابد أنه شعر بالهلع.

قال "إيليا": كل إنسان يستطيع استشعار أنه فى خطـــر، وعندها يبدأ التصرف بطريقة غريبة ، لهواجس بداخله، وكأنـــه يستشعر شيئا ما فى الهواء. ويحاول أن يخدع نفسه، لأنه يظـــن أنه غير قادر على مواجهة الموقف. وحاولوا خـــداع أنفســـهم حتى الآن، لكن حانت اللحظة التـــى يجـــب عندهـــا مواجهـــة

الحقيقة. عندئذ وصل كبير الكهنة وقال: لنذهب إلى القصر كي نعقد جلسة طارئة، والقائد في طريقه إلى هناك الآن.

همس "إيليا" للحاكم: لا تفعل ذلك. فسوف يرغمونك على مالا ترغب.

قال كبير الكهنة بإصرار : لابد أن نذهب . لقد قبض على جاسوس، ولهذا يجب اتخاذ بعض الإجراءات الطارئة.

غمغم "إيليا": لنعقد الجلسة بين الناس. سوف يساعدونك لأنهم يرغبون في السلام، رغم أنهم يطالبون بالحرب.

قال الحاكم آمرا : أحضروا الرجل هنا! فهتفت الجموع بابتهاج ، فهذه أول مرة يشاهدون فيها انعقاد مثل هذه الجلسة.

قال كبير الكهنة : لا نستطيع القيام بذلك! فالأمر شديد الحساسية، ويحتاج المرء إلى الهدوء ليتوصل إلى حل مناسب.

وافق البعض، وعارض كثيرون.

كرر الحاكم: أحضروه إلى هنا. فمحاكمته يجب أن تتم في هذه الساحة ، بين الناس. فنحن عملنا معا لتحويل "أكبار" إلى مدينة متحضرة ، وسوف نتشارك في محاكمة كل ما يهددنا.

قابل الناس هذا القرار بالتصفيق. وظهرت مجموعة من الجنود وهي تسحب رجلا نصف عار ومخضبا بالدماء. ويبدو أنه قد تعرض لضرب شديد قبل إحضاره.

.. خفت كل الضجيج . وعم صمت مطبق، لدرجة أمكن معها سماع صوت الخنازير والأطفال يلعبون فى الجانب الأخر للساحة.

صاح الحاكم: لماذا فعلتم هذا بالأسير؟

قال أحد الحراس: لقد قاوم. وزعم أنه ليس جاسوسا. بل أتى ليتحدث إليك. وأمر الحاكم بإحضار ثلاثة مقاعد من قصره ، وظهر خدمه يحملون عباءة العدالة التى يرتديها دائما عند اجتماع مجلس أكبار.

* * *

جلس كبير الكهنة والحاكم، وكان المقعد الثالث محجوزا للقائد الذى لم يصل بعد.

قال الحاكم: بإجلال أعلن انعقاد الجلسة لمواجهة هذه المحنة. ولتسمحوا لكبار السن بالاقتراب.

واقتربت مجموعة من الرجال العجائز، وكونت نصف دائرة حول المقاعد وكان يطلق على هذا الوضع فى العصور الماضية اسم : مجلس الشيوخ ، وكانت آراؤهم محل تقدير واحترام.

اليوم ، على كل ، أصبح دور هذه المجموعة احتفاليا، فهم موجودون ليوافقوا على ما يقرره الحاكم.

وبعد فترة قصيرة من الطقوس الشكلية ، مثل الصلاة لآلهة الجبل الخامس، وذكر أسماء عديد من الأبطال القدماء، نادى الحاكم على الأسير، وسأله :

ماذا تريد؟ ولم يرد الرجل وحملق فيه بطريقة غريبة كما لو كانا ندين.

كرر الحاكم سؤاله : ماذا تريد؟

عندئذ مس كبير الكهنة ذراعه ، وقال له : نحتاج مترجما فهو لا يعرف لغتنا.

وأصدر الحاكم أمره بالبحث عن مترجم . وغادر أحد الحراس للبحث عن تاجر يمكن أن يؤدى هذه المهمة.

ولم يأت التجار أبدا إلى الجلسات التى عقدها إيليا، فقد كانوا مشغولين دائما بمتابعة عملهم وإحصاء مكاسبهم.

وبينما هم ينتظرون ، همس كبير الكهنة: لقد ضربوه لأنهم كانوا خائفين.

واسمح لى بأن أتولى الفصل فى هذه القضية، لا تقل شيئا. فالرعب يجعل الإنسان عدوانيا، ويجب علينا أن نظهر سلطتنا وإلا سنفقد السيطرة على الموقف.

ولم يرد الحاكم . كان خائفا هو الاخر. وتطلع إلى عيني "إيليا" الذى لم يكن يستطيع رؤيته من حيث وقف.

ووصل التاجر، يقوده أحد الحراس بالقوة.

واشتكى من أن المحنة تهدر وقته، وأن لديه عديدا من الشئون يجب أن يحلها . لكن كبير الكهنة نظر إليه بصرامة أجبرته أن يلتزم الصمت ويبدأ فى ترجمة الحوار الذى سيدور.

سأل كبير الكهنة الأسير الآشورى: ماذا تريد من وجودك هنا؟

أجاب الرجل: أنا لست جاسوسا. أنا جنرال في الجيش. وجئت لأتحدث إليك.

وكان الجمهور صامتا، لكنه بدأ الصياح بمجرد سماعه ترجمة هذه الكلمات. ووصفوه بالكاذب ، وطلبوا معاقبته بالموت في الحال.

طلب كبير الكهنة من الجماهير أن تلتزم الصمت ، واستدار إلى الأسير، وسأله: ماذا تريد أن تقول؟

قال الاشوري : الحاكم مشهور بأنه رجل حكيم ، ونحن لا نرغب في تدمير المدينة ، فكل ما نسعى إليه هو "صيدا" و"تاير". لكن "أكبار" تقع على الطريق وتتحكم في الوادي، وإذا ما أجبرنا على القتال سنفقد الكثير من الرجال، ولهذا جئت أعرض التفاوض.

قال "إيليا" لنفسه: الرجل يتحدث بالحق. ولاحظ أنه محاط بمجموعة من الجنود تحجب عنه البقعة التي يجلس فيها الحاكم.

وظن مثل الجميع أن الله صنع معجزة ستنهي هذا الموقف الخطير.

وقف كبير الكهنة وصرخ في الناس: هل ترون ؟ إنهم يريدون تدميرنا دون مقاومة.

قال الحاكم الأسير: أكمل.

عاود كبير الكهنة تدخله وقال: حاكمنا رجل صالح، لا يرغب في إراقة الدماء لكننا في حالة حرب، والأسير الذي يقف أمامنا عدو.

صرخ واحد من الجمهور: إنه على صواب.

عندئذ أدرك "إيليا" خطأه. فكبير الكهنة كان يؤدى دورا تمثيليا أمام الناس، بينما الحاكم كان يحاول بأمانة أن يكون عادلا.

حاول "إيليا" أن يقترب، لكنه دفع للخلف، واحتجزه أحد الجنود بذراعه قائلا: إبق هنا، فهذه فكرتك رغم كل شئ.

نظر "إيليا" وراءه فرأى القائد يبتسم.

واصل كبير الكهنة : لا يجب أن ننصت لأية عروض، وكان حماسه يتدفق فى كلماته وإيماءاته . فإذا ما أبدينا رغبة فى التفاوض فهذا يعنى أننا نبدى خوفنا . الناس فى "أكبار" شجعان ولديهم من الوسائل ما يمكنهم من صد أى غزو.

قال الحاكم، مخاطبا الناس: الأسير رجل يسعى للسلام.

قال شخص ما : التجار يبحثون عن السلام ،الكهنة يرغبون فى السلام،الحكام يقرون السلام ،أما الجيش فلا يريد إلا الحرب.

صاح الحاكم : ألا ترى أننا نستطيع مواجهة التهديد الإسرائيلى لعقيدتنا بدون حرب ؟فنحن لم نرسل جيوشا ولا أساطيل ، فقط أرسلنا "إيزابيل".

والآن ها هم يعبدون (بعل) دون أن نضحى برجل واحد فى ساحة القتال. صرخ كبير الكهنة بصوت أعلى : لم يرسلوا امرأة جميلة ، أرسلوا محاربين والناس يطالبون بموت الآشورى.

أمسك الحاكم ذراع كبير الكهنة وقال له : إجلس. لقد تماديت.

قال كبير الكهنة: فكرة المحاكمة العامة كانت فكرتك ، أو بالأحرى كانت للإسرائيلى الخائن الذى يبدو كما لو كان يتحكم فى أفعال حاكم "أكبار".

قال الحاكم: سوف يكون لى معه شان آخر فيما بعد. الآن يجب أن نكتشف ما يريد الآشورى . لأجيال عديدة حاول الرجال أن يفرضوا إرادتهم بالقوة، وتحدثوا عما يريدون دون أن يهتموا بما يفكر فيه الناس. وكل هذه الإمبراطوريات تحطمت . أما شعبنا فنما ونضج لأنه تعلم كيف ينصت .

وهذه هى الطريقة التى طورنا بها التجارة. الإنصات لما يرغب فيه الآخر. وبعدها نحاول أن نبذل ما فى وسعنا لإرضائه. والنتيجة دائما هى الربح. أوما برأسه كبير الكهنة ، وقال: كلمات تبدو حكيمة ، وهذا أخطر ما فى الأمر. لأنه إذا تفوهت بكلام أحمق فمن السهل إثبات خطئك . لكن ما قلته الآن يقودنا إلى فخ.

وسمع الجالسون فى الصف الأمامى هذا النقاش.

وحتى هذه اللحظة كان الحاكم يأخذ برأى المجلس، وكان "لأكبار" سمعة رائعة. وأرسلت كل من "صيدا" و"تاير" بعثات لترى كيف تدار هذه المدينة . حتى الإمبراطور سمع بمدينة "أكبار"، وبقليل من الحظ قد يقضى الحاكم آخر أيامه وزيرا فى البلاط الإمبراطورى. واليوم تعرضت سلطته لتحد

علنى. وإذا لم يتخذ قرارا سيفقد احترام الناس، ولن يصبح في إمكانه أن يتخذ أية قرارات مهمة ، لأن أحدا لن يطيعه .

وقال الحاكم للأسير: أكمل، متجاهلا نظرة كبير الكهنة الغاضبة، وطلب من التاجر أن يترجم طلبه.

قال الاشورى: جئت لأعرض اتفاقا. دعنا نمر. وسوف نتوجه إلى "صيدا" و"تاير". وعندما تهزم هذه المدن، وهذا أمر أكيد لأن كثيرا من جنودهم على السفن مشغولون بالتجارة، سنكون كرماء مع "أكبار" وسنبقيك حاكما.

هب كبير الكهنة واقفا وسأل: ارأيت؟ إنهم يظنون أنك حاكم يقايض على شرف "أكبار" مقابل منصب..!

بدأت الجموع تزمجر فى غضب: هذا الأسير نصف العارى المجروح يريد أن يضع القوانين ا رجل مهزوم يعرض أن تستسلم المدينة! واندفع كثيرون لمهاجمته، وبذل الحرس مجهودا كبيرا للحفاظ على النظام!

قال الحاكم: انتظروا. محاولا أن يعلو صوته على الضجيج ، فأمامنا يقف رجل بلا حول أو قوة . رجل لا يستطيع أن يثير بداخلنا أى خوف.

وفوق ذلك نعرف أن جيشنا جهز بشكل أفضل، وأن مقاتلينا أشجع. ولا حاجة بنا لإثبات ذلك لأى شخص. وإذا ما قررنا أن نحارب ، سنكسب المعركة. لكن الخسائر ستكون فادحة.

أغمض "إيليا" عينيه، وصلى من أجل نجاح الحاكم فى إقناع شعبه.

أكمل الحاكم كلامه: وحكى لنا أجدادنا عن الإمبراطورية المصرية. لكنها لم تعد موجودة. وعدنا ثانية إلى العصر الذهبي. وعاش آباؤنا وآباؤهم فى سلام. فلماذا نكون نحن من يحطم هذا التقليد؟ ونحن نعلم أن الرخاء الحديث يتحقق من خلال التجارة وليس فى ميدان المعركة.

شيئا فشيئا، خيم الصمت على الناس، فقد نجح الحاكم فى مسعاه.

وعندما تلاشى الضجيج ، التفت الحاكم إلى الآشورى وقال: ما تعرضه غير كاف. إذا أردتم عبور أرضنا؛ يجب أن تدفعوا الضرائب مثلما يفعل التجار.

قال الأسير: صدقنى أيها الحاكم ، لا خيار أمام "أكبار". لدينا ما يكفى من الرجال لتدمير المدينة وقتل كل سكانها. لقد عشتم طويلا فى سلام ونسيتم كيف تحاربون، بينما نحن نحتل العالم.

تعالت الهمهمات ثانية بين حشود الناس.

قال "إيليا" لنفسه: لا يستطيع الحاكم إبداء حيرته الآن، رغم أنه من الصعب عليه أن يتعامل مع الأسير الآشورى، الذى يفرض شروطه رغم أنه مأسور.

وفى كل لحظة كان مزيد من الناس يتوافدون.

ولاحظ "إيليا" أن التجار الذين لا يهتمون سوى بالأحداث الذائعة، تركوا أماكن عملهم لينضموا إلى الجماهير.

وكانت المحاكمة قد وصلت إلى مرحلة خطيرة. فلم يكن من سبيل للتراجع عن اتخاذ قرار بالتفاوض أو بإعدام الأسير.

بدأ الناس ينقسمون: البعض يدافع عن السلام، بينما آخرون يطالبون أن تواجه "أكبار" عدوها.

همس الحاكم إلى "كبير الكهنة" : لقد تحداني هذا الرجل أمام الناس، وكذلك فعلت أنت.

استدار كبير الكهنة إليه وتحدث بحيث لا يستطيع أحد أن يسمعه وقال: أخبره أن يحكم على الأشورى بالموت فى الحال.

أما أنا فلا أطلب بل آمر. وهذه هى الطريقة التى تمكننى من إبقائك فى السلطة، وأستطيع أن أضع حدا لذلك عندما أرغب، هل تفهم؟

إننى أعرف ما هى القرابين التى ستمكننا من استرضاء الآلهة وتجنب غضبها وعقابها، إذا ما دفعنا لاستبدال العائلة الحاكمة، ولن تكون هذه هى المرة الأولى، فحتى فى مصر، الإمبراطورية التى استمرت لآلاف السنين، ثمة حالات عديدة من استبدال العائلات الحاكمة. ولم يتوقف الكون بل استمر فى نظامه، ولم تسقط السموات على رؤوسنا.

شحب وجه الحاكم. واستمر "كبير الكهنة" فى كلامه: وها هو قائد الجيش بين الحشود مع بعض جنوده. وإذا أصررت على التفاوض مع هذا الرجل سأخبر الجميع أن الآلهة تخلت عنك، ولذلك سوف تعزل. دعنا نستمر فى المحاكمة وامتثل لما آمرك به.

لو كان الحاكم يستطيع رؤية "إيليا"، لوجد مخرجا من هذا المأزق. بإمكانه أن يطلب من النبى الإسرائيلى أن يقول

إنه رأى ملاكا على الجبل الخامس كما سبق وحكـــى. وكذلـك يستدعى حكاية قيام ابن الأرملة من الموت. عندئذ ستكون كلمـة "إيليا" - الذى سبق أن أثبت أنه قادر على القيام بـــالمعجزات - فى مواجهة كلمة هذا الرجل "كبير الكهنة" الذى لـــم يســبق أن أبدى أية قوى خارقة . لكن "إيليا" تركــــه وحيــدا ، بــلا أيــة فرصة.

على أية حال، هذا الرجل مجرد أسير، ولم يســـبق أن بدأ جيش الحرب لأنه فقد جنديا.

قال الحاكم لـــ "كبير الكهنة": الآن أنت الغالب - وذات يوم سوف أتفاوض على شئ آخر فى المقابل.

هز "كبير الكهنة" رأسه إيماء بالموافقة . وصدر الحكـم فى الحال.

قال الحاكم: لا يتحدى أحد "أكبار" . ولا يدخل مدينتنـــا أحد بدون تصريح من سكانها. وقد حاولت ذلك؛ ولـــهذا يحكـم عليك بالموت.

وحيث كان واقفا، نظر "إيليا" إلى أسفل. وابتسم قــــائد الجيش.

١٧

سار الأسير وخلفه جموع غفيرة لا مثيل لها، واقتيد إلى مكان جوار الجدران المحيطة بالمدينة. وهناك خلعت عنه آخر ملابسه وتركوه عاريا، ودفعه أحد الجنود إلى قاع حفرة، والتف الناس حول الحفرة ، وتدافعوا ليروا بشكل أفضل.

"يرتدى الجندى زيه بفخر، ويجعل نفسه مرئيا للعدو؛ لأن لديه الشجاعة الكافية لذلك، ويرتدى الجاسوس ملابس النساء لأنه جبان".

بهذا الكلام صرخ الحاكم ليسمعه الجميع. وأضاف: ولهذا حكمت عليك أن تغادر هذه الحياة مجردا من الزهو الذى يشعر به كل شجاع.

توجهت الجموع إلى السجين بالسخرية والتهكم، وصفقت مستحسنة كلام الحاكم. وقال السجين شيئا ما، لكن المترجم لم يعد موجودا ولهذا لم يفهم كلامه أحد. نجح "إيليا" فى اختراق الصفوف ليصل إلى الحاكم، ولكن بعد فوات الأوان، فعندما لمس عباءته، دفع بعنف.

قال الحاكم: الخطأ خطؤك . فحتى لو انعقد مجلس "أكبار" في السر ، كان قائد الجيش وكبير الكهنة سيفرضان إرادتهما. لقد أحاطني الجنود طوال المحاكمة . فهما خططا لكل شئ.

قال "كبير الكهنة" : تقضى التقاليد بأن اختيار مدة التعذيب هى مسئولية كبير الكهنة. انحنى والتقط حجرا ناوله للحاكم . ولم يكن الحجر كبيرا ليقتل سريعا، ولا صغيرا للحد الذى يجعل العذاب محتملا فترة طويلة .

صاح الرجل: المجد لآشوريا. فى هذه اللحظة أنظر إلى صورة شعبى وأموت وأنا فى غاية البهجة، لأننى أموت كقائد حاول حماية مقاتليه والحفاظ على حياتهم. سوف أذهب لرفقة الآلهة وأنا راض لأننى أعرف أننا سنحتل هذه الأرض.

قال كبير الكهنة: أرأيت؟! لقد سمع وفهم كل شئ قيل أثناء المحاكمة ووافقه الحاكم. فالرجل تحدث بلغتهم ، وهذا يعنى أنه عرف بالانقسامات فى مجلس " أكبار".

وأكمل الرجل: أنا لست فى الجحيم، لأن رؤية بلدى تمنحنى العظمة والقوة. رؤية بلدى تجعلنى سعيدا. وصاح ثانية: المجد لآشوريا.

وبعد أن تجاوزا دهشتهما، عاودت الجموع قذف الأحجار، وأبقى الرجل ذراعيه إلى جانبيه ، بلا محاولة للمقاومة. فلقد كان محاربا شجاعا.

وبعد بضعة ثوان تجلت رحمة الآلهة واصطدم حجر بمقدمة رأسه، ففقد الوعى وسقط على الأرض.

قال كبير الكهنة: نستطيع أن نذهب الآن. وسوف يكمل أهل "أكبار" هذه الشعيرة حتى النهاية.

* * *

لم يرجع "إيليا" إلى بيت الأرملة. وسار في الصحراء لا يعرف تحديدا إلى أين يريد الذهاب.

وقال للنباتات وللصخور: "لم يفعل الله أى شئ. رغم أنه كان يستطيع أن يفعل شيئا ما".

وندم على قراره ولام نفسه لموت رجل آخر. فلو قبل فكرة انعقاد مجلس "أكبار" في السر، كان الحاكم سيتمكن من اصطحابه معه، وعندئذ كانا سيواجهان - معا - كبير الكهنة وقائد الجيش.

ورغم أن الفرص المتاحة أمامهما في هذه الحالة ستكون محدودة، فهي أفضل من المحاكمة العلنية .

واسوأ شئ أنه قد تأثر بالطريقة التي استدعى بها كبير الكهنة الجماهير، رغم أنه لم يوافق على ما قاله ، لكنه كان مجبرا على الانتباه لضرورة وجود رجل لديه فهم عميق بفكرة القيادة. وسيحاول أن يتذكر كل تفصيلة راها، تحسبا ليوم لابد آت في إسرائيل. سيضطر فيه لمواجهة الملك والأميرة القادمة من صيدا.

تجول "إيليا" بلا هدف ناظرا إلى الجبال والمدينة ومعسكر الآشوريين الذى يظهر عن بعد. وشعر أنه مجرد نقطة في هذا الوادى، وأن ثمة عالما كثيفا يحيط به. عالم شديد الاتساع لن يستطيع بلوغ اخره حتى ولو ارتحل طوال حياته.

وقد يكون أصدقاؤه وأعداؤه توصلوا لفهم أفضل للأرض حيث يعيشون، وقد يسافرون إلى بلاد بعيدة، ويجرون فى بحار مجهولة ويعشقون النساء بلا شعور بالذنب. ولن يوجد بينهم من يسمع ملائكة طفولته ، أو يزجون بأنفسهم فى صراع مع الله.

إنهم يعيشون خارج حيواتهم فى اللحظة الراهنة، ويشعرون بالسعادة وهو أيضا مجرد شخص مثل الآخرين. وفى هذه اللحظة التى يسير فيها عبر الوادى تمنى لو لم يكن سمع صوت الله أو ملائكته.

لكن ليس بالرغبات تكون الحياة. وإنما بأفعال كل شخص.

وتذكر أنه لمرات عديدة فى الماضى حاول التراجع عن مهمته، لكنه ما زال هناك فى منتصف هذا الوادى، لأن هذا ما طلبه الرب.

.. مجرد نجار كنت ، آه يا الله، وأستطيع أن أكون نافعا للعمل.

ورغم ذلك وقف إيليا هناك، ساعيا لتنفيذ ما طلب منه. حاملا بداخله ثقل الحرب التى لا بد تقع ، ومذبحة الأنبياء التى اقترفتها إيزابيل، والموت رجما للقائد الآشورى ، وخوفه من عشق امرأة من "أكبار".

لقد وهبه الله هبة لا يعرف ماذا يفعل بها.

وفى وسط الوادى لاح ضوء. لم يكن لملاكه الحارس الذى سمعه ولم يره . لقد كان ملاك الله، جاء ليقدم له المشورة.

قال إيليا: لا حيلة لى هنا بعد الآن. فمتى أعود إلى إسرائيل؟

أجابه الملاك: عندما تتعلم كيف تعيد البناء.

لكن عليك أن تتذكر ما علمه الرب لموسى قبل المعركة.

استغل كل لحظة حتى لا تندم بعد ذلك، وتنتحب لضياع الشباب. فلكل فترة فى حياة الإنسان هواجسها التى يبثها الله داخله.

١٨

وقال الرب لموسى:

"ويقول لهم اسمع يا إسرائيل. أنتم قربتم اليوم من الحرب على أعدائكم. لا تضعف قلوبكم . لا تخافوا ولا ترتعدوا ولا ترهبوا وجوههم. لأن الرب إلهكم سائر معكم لكى يحارب عنكم أعداءكم ليخلصكم . ثم يخاطب العرفاء الشعب قائلين من هو الرجل الذى بنى بيتا جديدا ولم يدشنه . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب ويدشنه رجل آخر. ومن هو الرجل الذى غرس كرما ولم يبتكره . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب فيبتكره رجل آخر".

١٩

أكمل "إيليا" سيره لبعض الوقت ساعيا لاكتشاف ما يساعده على فهم ما سمعه. وبينما كان يتأهب للعودة إلى "أكبار"، رأى المرأة التى أحبها تجلس على صخرة فى مواجهة الجبل الخامس، وتبعد عن المكان حيث يقف، مسيرة بضع دقائق.

تساءل: ما الذى تفعله هنا؟ هل تعرف بأمر المحاكمة وقرار الموت والمخاطر التى سنواجهها؟

شعر أنه يجب أن ينبهها فى الحال . وقرر الاقتراب منها.

لاحظت وجوده ولوحت له.

بدا "إيليا" كما لو كان قد نسى كلمات الملاك، وعاوده الشعور بعدم اليقين.

حاول التظاهر بأنه كان قلقا بسبب مشاكل المدينة، حتى لا تدرك التشوش الذى أصاب قلبه وعقله.

وعندما دنا منها سألها: ماذا تفعلين هنا؟!

قالت: جئت بحثا عن بعض الإلهام . فالكتابة التي أتعلمها جعلتني أفكر فيمن ابتدع الوديان والجبال ومدينة "أكبار".

وأعطاني بعض التجار أحبارا بكل لون ، لأنهم أرادوا أن أكتب لهم بعض الأشياء . وفكرت أن أستخدم هذه الأحبار الملونة في وصف العالم الذي أعيش فيه، لكنني أعرف صعوبة تحقيق هذا الطموح. فرغم أن الألوان معي، الله - فقط - يستطيع مزجها بمثل هذا التناغم. ظلت محدقة في الجبل الخامس . وبدت شخصا مختلفا تماما عن المرأة التي قابلها منذ بضعة شهور تجمع الأخشاب عند بوابة المدينة. وشعر أن وجودها بمفردها وسط الصحراء قد بث الثقة والاحترام بداخله.

تساءل "إيليا" : لماذا كل الجبال لها أسماء ما عدا الجبل الخامس يشار إليه برقم؟

أجابت : حتى لا يتسبب ذلك في صراع بين الآلهة. فحسب تقاليدنا ، إذا أعطى الناس اسم أحد الالهة لهذا الجبل، سوف تغضب الالهة الأخرى وتدمر الأرض. ولهذا أطلق عليه "الجبل الخامس" لأنه الجبل رقم خمسة الذي نراه خلف الجدران المحيطة بالمدينة.

وبهذه الطريقة لم نغضب أحدا، وحافظنا على سلامة الكون. لبعض الوقت لم ينطقا بشيء. وكسرت المرأة هذا الصمت بقولها:

وبالإضافة إلى تأمل مسألة الألوان هذه، فكرت في الخطورة التي ستتسبب فيها الكتابة البابلية. فقد تغضب آلهة الفينيق ، والله إلهنا.

قاطعها "إيليا" قائلا: فقط الله هو الموجود. وكل دولة متحضرة لها نظام كتابة خاص بها.

أكملت المرأة: لكن الأمر مختلف بالنسبة لنا. فعندما كنت طفلة اعتدت الذهاب إلي الساحة لمشاهدة "الخطاط" وهو يعمل لدى التجار وكانت خطوطه ورسوماته مؤسسة على خطوط الكتابة الفرعونية وما تتطلبه من مهارة ومعرفة. والآن – مصر القوية والقديمة فى تدهور، بلا مال لشراء أى شئ، ولم يعد هناك من يستخدم لغتها بعد الآن، خاصة بعدما نشر البحارة من "صيدا وتاير" الكتابة البابلية فى كل أنحاء العالم.

وهكذا أصبح من الممكن تدوين الكلمات والشعائر المقدسة على ألواح من الطين، ونقلها من شعب لآخر. فماذا سيحدث للعالم إذا استغل ناس، بلا ضمير أو مبادئ، هذه الشعائر لإثارة الاضطرابات فى الكون؟

فهم "إيليا" ما كانت تقوله المرأة.

كانت الكتابة البابلية قد تأسست على نظام غاية فى البساطة، فـ "الرسومات / الحروف" الفرعونية تحول فى البداية إلى أصوات، ثم يصمم حرف مقابل كل صوت. وبوضع هذه الحروف فى نظام معين ، من الممكن ابتداع كل الأصوات الممكنة، وكذلك وصف كل شئ موجود فى هذا الكون . وكانت بعض هذه الأصوات عصية على النطق. وتوصل الإغريق إلى حل لهذه المشكلة ، بإضافة خمسة حروف أخرى تعرف "بالحروف المتحركة" إلى الحروف

العشرين للكتابة البابلية وأطلقوا على هذا الابتكار اسم (حروف الهجاء) والآن يستخدم هذا الاسم لتعريف نوع جديد من الكتابة.

وسهل ذلك كثيرا من التبادل التجارى بين مختلف الشعوب.

وكان نظام الكتابة المصرى يتطلب فراغا أكبر، وقدرة على رسم الأفكار، بالإضافة إلى فهم عميق للتمكن من تفسيرها. ورغم فرض هذا النظام على الشعوب التى استعمرتها مصر، لم يحمها هذا من التدهور والاضمحلال. أما نظام الكتابة البابلى، فقد انتشر سريعا فى أنحاء العالم لأنه اعتمد على القوة الاقتصادية للفينيق الذين أخذوا به وتعلموه.

ونظام الكتابة البابلى ، مع التعديل الإغريقى له، أسعد التجار فى شتى الأمم لأنهم، من قديم، من يقررون ما يبقى فى التاريخ وما يجب أن يختفى مع موت الملك أو الشخص الذى جاء به وقدمه.

وهكذا اتضح أن الابتكار الفينيقى كان مقدرا له أن يصبح لغة التجارة ، ليحفظ تجار فينيقيا وملوكها وأميراتها الفاتنات وصانعى النبيذ وسادة صناع الزجاج.

سألت المرأة: هل سيغيب الرب عن هذه الكلمات؟

قال "إيليا" : سيدوم فيها. لكن سيصبح كل شخص مسئولا أمامه عما يكتب.

أخرجت من طيات ثوبها لوحا طينيا مكتوب عليه شئ ما.

سأل إيليا : ماذا يعنى هذا؟

قالت: الكلمة هى "الحب".

أخذ "إيليا" اللوح بين يديه دون أن يجرؤ على سؤالها لماذا أعطته له .

وعلى قطعة الطين هذه بعض الخربشات تلخص لماذا النجوم معلقة فى السماء ، ولماذا يمشى الإنسان على الأرض.

حاول أن يعيده إليها، لكنها رفضت.

قالت: كتبته لأجلك ، رغم أننى أعرف مهمتك ، وأعرف أنك ذات يوم ستضطر للرحيل، وأنك ستصبح عدوا لبلدى لأنك ستسعى للقضاء على إيزابيل.

وفى هذا اليوم، ربما أكون إلى جانبك وأدعمك فى تنفيذ مهمتك، أو أكون مع الذين يحاربونك ، لأن إيزابيل تنتمى إلى بلدى.

وهذه الكلمة التى تحملها بين يديك مملوءة بالغموض ، لا يعرف أحد ما الذى توقظه فى قلب امراة ، ولا حتى الأنبياء الذين يتحدثون إلى الرب يستطيعون ذلك.

قال "إيليا": أعرف الكلمة التى كتبتها، ووضع اللوح بين طيات عباءته وأكمل - لقد صارعتها ليل نهار. ورغم أننى لا أعرف ما الذى توقظه في قلب امرأة، فإننى أعرف ما تستطيع فعله برجل.

.. لدى الشجاعة لمواجهة ملك إسرائيل، وأميرة صيدا، ومجلس " أكبار". لكن هذه الكلمة "الحب" ، تبث الرعب بداخلى.

وقبل أن تكتبيها على لوحك، رأتها عيناك مكتوبة في قلبي. وصمتا.

موت الرجل الآشوري، مناخ القلق الذى خيم على المدينة، ونداء الرب الذى قد يأتى فى أية لحظة، جميعها ليست فى قوة الكلمة التى كتبتها. ومد "إيليا" يده فضمتها المرأة بين يديها. وبقيا على هذا الحال حتى اختفت الشمس خلف الجبل الخامس.

وفى طريق العودة قالت له : أشكرك . منذ وقت طويل وبى رغبة فى قضاء ساعات غروب الشمس معك.

عند وصولهما إلى البيت وجدا رسولا من عند الحاكم فى انتظاره، وطلب من "إيليا" أن يأتى معه فى الحال لمقابلة الحاكم.

* * *

قال الحاكم لإيليا: قابلت مساندتى لك بالجبن والتخاذل، فماذا يجب أن أفعل بحياتك؟

قال إيليا: لن أحيا ثانية واحدة أطول من إرادة الله. هو من يقدر وليس أنت.

دهش الحاكم لشجاعة "إيليا" وقال : أستطيع أن آمر بقطع عنقك فى الحال ، أو أسحلك عبر شوارع المدينة زاعما أنك جلبت لعنة على شعبنا، وهذا لن يكون قرار إلهك الواحد.

قال "إيليا" : مهما كان مصيرى، لابد سيحدث لى. لكن كل ما أرغبه أن تعرف أننى لم أفر، جنود قائد الجيش منعونى من الوصول إليك، فالقائد يريد الحرب وسيفعل أى شئ للوصول إلى هدفه.

قرر الحاكم ألا يهدر مزيدا من الوقت فى هذا النقاش العشوائى .

فقد كان عليه أن يشرح خطته للنبى الإسرائيلى. وقال له : لا يرغب القائد فى الحرب، فهو كرجل عسكرى محنك يعرف أن جيشه أقل عددا وخبرة، ولهذا سيسحقه جيش العدو. وكرجل شريف يعرف أنه إذا خاطر سيجلب العار على أحفاده. لكن قلبه تحول إلى حجر بسبب الشعور بالعظمة و القداسة.

لقد ظن أن العدو خائف، ولم يدرك أن المحاربين الآشوريين مدربون جيدا، فهم عند الالتحاق بالجيش يزرعون شجرة، وكل يوم يقفزون فوق البقعة التى دفنوا البذور فيها ، ويصبح البرعم نباتا، ويستمرون فى القفز لا يضجرون من هذا أو يشعرون بأنهم يهدرون وقتهم.

وشيئا فشيئا تنمو الشجرة، ويقفز الجنود لأعلى. وهكذا يدربون بصبر وتفان، على تجاوز العقبات والسدود.

لقد اعتادوا التعرف على التحدى عندما يرونه. وهم الآن يراقبوننا منذ شهور .

قاطع "إيليا" الحاكم قائلا: حينئذ من تظنه يهتم بنشوب الحرب؟

قال الحاكم: إنه كبير الكهنة. رأيت ذلك طوال محاكمة الأسير الاشورى .

قال "إيليا": وما دافعه؟

قال الحاكم: لا أعرف. لكن لديه من الدهاء ما يمكنه من إقناع القائد والناس.

والآن المدينة كلها فى صفه ، ولا أرى سوى مخرج وحيد للموقف العصيب الذى وجدنا أنفسنا به. وصمت لحظة، مضت ثقيلة ، ثم نظر مباشرة فى عينى الإسرائيلى ، وقال : أنت.

وبدأ الحاكم يروح ويجئ فى الحجرة ، كشف حديثه المتعجل انه متوتر.

وأكمل: التجار أيضا يرغبون فى السلام، لكنهم لا يستطيعون فعل أى شئ وعلى أية حال، هم أغنياء ويستطيعون الرحيل إلى مدينة أخرى ليستوطنوها أو ينتظرون حتى يشترى الغزاة بضائعهم. وبقية الناس فقدوا القدرة على التمييز ، ويطالبوننا بمهاجمة عدو متفوق علينا تماما. ولا شئ يستطيع التأثير فيهم وتغيير تفكيرهم. سوى معجزة .

قال "إيليا" وقد اعتراه التوتر: معجزة؟

قال الحاكم: سبق وأعدت للحياة طفلا بعد موته، وساعدت الناس ليهتدوا إلى سبلهم، وأصبحت محبوبا من غالبية الشعب رغم أنك أجنبى .

قال "إيليا": كان ذلك هو الحال حتى هذا الصباح، لكنه تغير الآن. ففى المناخ الذى وصفته توا ، سيعتبر أى مدافع عن السلام خائنا.

قال الحاكم: لا أريدك مدافعا عن أى شئ. أريد منك القيام بمعجزة عظيمة مثل إعادة هذا الصبى للحياة. عندئذ ستقول للناس إن السلام هو الحل الوحيد، وسينصتون إليك، وسيفقد كبير الكهنة كل ما لديه من قوة وسلطة.

ساد الصمت للحظة ، أكمل الحاكم بعدها: أنتوى إقامة مواجهة، فإذا نفذت ما أطلبه منك؛ ستفرض عقيدة الإله الواحد على الناس في " أكبار" . وستسعد بذلك الإله الذى تسعى لخدمته، وسأصبح عندها قادرا على التفاوض من أجل السلام.

* * *

تسلق "إيليا" درجات السلم الخشبى المؤدى إلى غرفته فى العلية بمنزل الأرملة . وفى هذه الاونة كانت لديه فرصة لم تسنح لنبى قبل ذلك قط، فرصة لتحويل مدينة فينيقيا لعبادة الإله الواحد. وهذه هى الطريقة الأكثر إيلاما لإيزابيل ، عندما تكتشف أنه لا بد من مقابل لما اقترفته فى مدينته .

استثاره العرض الذى قدمه الحاكم له ، لدرجة أنه فكر فى إيقاظ المرأة النائمة بأسفل ، لكنه غير رأيه، فلابد هى نائمة تحلم بالظهيرة التى قضياها معا.

نادى على ملاكه الحارس، فظهر له.

قال "إيليا": سمعت عرض الحاكم. إنها فرصة فريدة.

قال الملاك: ليست فريدة ، الله يمنح الإنسان فرصا عديدة. ولا تنس ما قاله: "لن تكون ثمة معجزة أخرى حتى تعود إلى وطنك".

نكس "إيليا" رأسه. وفى هذه اللحظة ظهر ملاك الله وغطى وجوده على وجود ملاك إيليا الحارس، وقال ملاك الله: انظر هذه معجزات ستأتى. سوف تجمع الناس معا عند الجبل. وفى ناحية سوف تأمر ببناء مذبح لـ بعل، ويدفع بثور إليه. وفى الناحية الأخرى سوف تبنى مذبحا لله، ويدفع بثور اخر

إليه. وسوف تقول لعبدة بعل ادعوا باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب. ودعهم يبدأون. وليقضوا من الصباح حتى الظهيرة يدعون بعل ليهبط ويحصل على ما قدموه له. وسوف يصيحون وينتحبون ويقطعون أجسادهم، ويتوسلون لكى تأخذ الهتهم الثور قربانهم، ولن يحدث شئ. وعندما يصيبهم الإرهاق والسأم، سوف تملأ جرارا أربعا بالماء وتصبها على الثور، وسوف تكرر ذلك مرة ثانية وثالثة، وعندها ستدعو إله إبراهيم وإسحق وإسرائيل وتسأله أن يظهر قوته للجميع.

وفى هذه اللحظة سيرسل الله نارا من الجنة ويأخذ القربان".

سجد "إيليا" شكرا وامتنانا.

وبعدها أكمل الملاك : "وهذه المعجزة لا تحدث سوى مرة واحدة فى العمر. ولك أن تختار، إما تتحقق هنا لتجنب المعركة، أو فى الوطن لتحرر الناس من إيزابيل".

ورحل ملاك الله.

* * *

استيقظت المرأة مبكرا ورأت "إيليا" جالسا فى مدخل المنزل.

كانت عيناه غائرتين فى محجريهما، مثل عينى من لم يغمض له جفن. ودت لو سألته عما حدث فى الليلة السابقة، لكنها خشيت رد فعله. قد تكون محادثته مع الحاكم وخطر الحرب الداهم سببا فى مجافاة النوم له طوال ليلة أمس. وقد يكون ثمة سبب اخر. ربما اللوح الطينى الذى أعطته إياه. وإذا

صح تخمينها هذا وطرحت الموضوع، فربما يفاجئها بقوله إن حب امرأة لا يتفق مع تدبير الرب.

ولم تنطق سوى بهذه الكلمات: "تعال"، وكل شيئا.

استيقظ ابنها كذلك. وجلس ثلاثتهم إلى الطاولة ليأكلوا.

قال "إيليا" : كم رغبت أن أجلس معك البارحة، لكن الحاكم احتاجني.

قالت: لا تورط نفسك معه، وعاودت السكينة قلبها، فأسرته حكمت "أكبار" لأجيال، وسيعرف كيف يواجه الخطر.

قال "إيليا": وتحدثت كذلك إلى الملاك . وطلب مني اتخاذ قرار صعب.

قالت "المرأة": لا تشغل نفسك بالملائكة، ربما من الأفضل لك أن تصدق أن الالهة تتغير مع الزمن. لقد عبد أسلافى الالهة المصرية وكانت لها هيئة الحيوانات، ثم ذهبت هذه الالهة.

وإلى وقت وصولك كنت أقدم القرابين إلى عشتار وبعل وكل ساكنى الجبل الخامس. والان عرفت الله، لكنه هو الاخر قد يغادرنا ذات يوم، وقد تكون الألهة التالية له أقل في طلباتها.

طلب الصبى ماء. ولم يكن ثمة ماء.

قال إيليا: سأذهب للبحث عن الماء.

قال الصبى : أرغب فى الذهاب معك.

سارا باتجاه البئر. وفى الطريق مرا على بقعة حيث يدرب القائد جنوده منذ الصباح الباكر.

قال الصبي: لنشاهدهم بعض الوقت. فسوف أصبح جنديا عندما أكبر. واستجاب "إيليا" لطلب الصبي.

تساءل جندي: من أمهر في استخدام السيف؟

قال القائد: اذهب إلى المكان حيث كان الجاسوس يرجم أمس، والتقط حجرا وهشمه.

قال الجندي: لماذا يجب أن أفعل ذلك؟ الحجر لن يرد علي.

قال القائد: حينئذ هاجمه بسيفك.

قال الجندي: سيتحطم سيفي. ولم يكن هذا ما أسال عنه. أريد معرفة من الأفضل في استخدام السيف.

قال القائد: الأفضل هو الأكثر شبها بالحجر. فبدون أن تشهره يثبت أن لا أحد يستطيع قهره.

علق "إيليا": الحاكم على حق، فالقائد رجل حكيم. لكن أعظم حكمة يعميها الغرور.

* * *

استمرا في سيرهما. وتساءل الصبي لماذا الجنود يتدربون كثيرا.

قال "إيليا" ليس الجنود وحدهم، أمك أيضا وأنا وكل الذين يتبعون قلوبهم . كل شئ في الحياة يحتاج التدريب.

سأله الصبي: حتى تكون نبيا؟

قال إيليا: حتى لفهم الملائكة. فنحن نتوق للحديث إليها. ولكننا لا ننصت إلى ما تقول. الإنصات صعب. ففي صلواتنا نحاول دائما أن نبوح بآثامنا، ونطلب ما نود أن يحدث

لنا. لكن الله يعرف كل هذا، وأحيانا يطلب منا أن ننصت إلى ما يقوله لنا الكون، وأن نتحلى بالصبر.

نظر إليه الصبى دهشا. يكاد لا يفقه شيئا مما سمع. ورغم ذلك شعر "إيليا" بحاجة للاستمرار فى الحديث ، فلعل كلمة من هذه الكلمات تساعد الصبى فى موقف صعب عندما يصل إلى مرحلة الرجولة.

وأكمل: كل معركة فى الحياة تعلمنا شيئا ما، حتى المعارك التى نخسرها. وعندما تنضج ، ستكتشف أنك دافعت عن أكاذيب ، وخدعت نفسك، وعانيت من أجل هراء. فإذا كنت محاربا جيدا، لن تلوم نفسك على هذا. لكنك لن تسمح بتكرار أخطائك .

عندئذ قرر "إيليا" التوقف عن الكلام. فصبى فى مثل عمره لا يستطيع أن يفهم ما قال. سارا ببطء، ونظر "إيليا" إلى شوارع المدينة التي لجأ إليها وحمته ، حتى إنه كاد أن يتلاشى فيها. فكل شئ يعتمد على القرار الذى يجب اتخاذه.

كانت "أكبار" ساكنة أكثر من المعتاد. وفى الساحة الوسطى كان الناس يتهامسون ، كما لو كانوا يخشون أن تحمل الرياح كلماتهم إلى معسكر الاشوريين.

كان كبارهم يقسمون بانه لن يحدث أى شئ، بينما الشباب قد اثارهم تخيل مشهد المعركة. أما التجار والحرفيون فكانوا يخططون للرحيل إلى صيدا وتاير حتى استعادة الاستقرار.

قال "إيليا" لنفسه: من السهل عليهم أن يرحلوا، فالتجار يستطيعون نقل بضائعهم إلى أى مكان فى العالم، والحرفيون كذلك يستطيعون العمل حتى فى الأماكن التى يتحدث سكانها بلغة غريبة .

أما أنا فيجب أن آخذ تصريحا من الله.

* * *

وصلا إلى البئر. وملآ وعاءين بالماء.

وفى العادة كان المكان يزدحم بالناس، فالنسوة يجتمعن لغسل الملابس وصباغة الأقمشة وتبادل التعليقات حول كل شئ حدث في المدينة . لا شئ يمكن كتمانه بالقرب من البئر. أخبار الأعمال التجارية، الخيانات العائلية، المشاكل بين الجيران، الأسرار الخاصة بحياة الحكام، كل شئ خطير أو تافه كان يناقش ويعلق عليه وينتقد أو يستحسن بالقرب من البئر.

وحتى خلال الشهور التى تزايدت فيها قوات العدو بلا توقف، ظلت إيزابيل – الأميرة التى احتلت قلب ملك إسرائيل – هى الموضوع المفضل. كان الناس يمتدحون جرأتها وشجاعتها، وكانوا متأكدين أنها ستعود لمواجهة أى شئ قد يحدث للمدينة.

وهذا الصباح، لا أحد عند البئر – تقريبا.

وقالت النساء المعدودات اللائى تواجدن هناك إنه من الضرورى الذهاب إلى الحقول لجمع أكبر كمية من المحصول؛ لأن الاشوريين عما قريب سيغلقون مداخل ومخارج المدينة.

اثنتان منهن كانتا تخططان للذهاب إلى الجبل الخامس وتقديم القرابين للآلهة، فلم يكن يتصورن موت أولادهن في المعركة .

قالت امرأة لإيليا: نستطيع المقاومة لشهور، هكذا قال كبير الكهنة، وكل ما نحتاجه هو الشجاعة اللازمة للدفاع عن كرامة "أكبار"، وعندها ستأتي الألهة لمعاونتنا.

كان الصبي مرعوبا ، وسأل : هل سيهاجمنا العدو؟

لم يرد "إيليا" فلقد كان الأمر يتوقف على الاختيار الذي قدمه الملاك له ليلة أمس.

قال الولد بإصرار : أنا خائف.

قال "إيليا" : هذا يثبت أنك وجدت بهجة الحياة. ومن الطبيعي أن تشعر بالخوف عند لحظات محددة.

* * *

عاد "إيليا" والصبي إلى البيت قبل انقضاء النهار. ووجدا المرأة محاطة بأوعية صغيرة ممتلئة بأحبار ذات ألوان شتى.

قالت: يجب أن أعمل، ونظرت إلى الحروف والعبارات غير المكتملة ، فبسبب القحط امتلأت المدينة بالتراب، وأصبحت الفرش متسخة دائما، واختلط الحبر بالتراب، فأصبح كل شئ أكثر صعوبة.

ظل "إيليا" صامتا، فلم يرغب أن يشاركه أحد اهتماماته. وجلس في ركن من الحجرة الواقعة أسفل السلم، وغرق في أفكاره.

قالت المرأة: يحتاج للصمت. وحاولت التركيز في عملها.

ظلت طوال الظهيرة تعمل على استكمال كلمات قليلة، يمكن كتابتها في نصف هذه المدة، وشعرت بالذنب لأنها لم تقم بالمتوقع منها.

وعلى كل حال، لأول مرة في حياتها، سنحت لها الفرصة لتعول أسرتها.

عادت إلى عملها. وكانت تستخدم البردى، خامة جلبها مؤخرا تاجر من مصر، وطلب منها أن تكتب عليها بعض الخطابات التجارية التي يجب إرسالها إلى دمشق.

لم تكن صحيفة البردى ذات جودة عالية ، وكثيرا ما سال الحبر عليها في بقع ورغم كل هذه الصعوبات، هذه الطريقة أفضل من النقش في الطين.

وكان من عادات البلاد المجاورة إرسال الرسائل على ألواح من الطين أو رقائق من جلد الحيوان.

ورغم أن حضارة المصريين كانت في اضمحلال، وكتابتهم أصبحت مهملة ، فقد ابتكروا وسيلة سهلة وسحرية لتسجيل معاملاتهم التجارية وتاريخهم، كانوا يقطعون شرائط من نبات ينمو على ضفاف النيل، وبواسطة عملية بسيطة لصقوا هذا الشرائط جوار بعضها لتكون صحيفة صفراء.

وكان على "أكبار" أن تستورد هذا البردى لأنه لم يكن ينمو في واديها.

ورغم تكلفته ، فضل التجار استخدامه لأنهم يستطيعون حمل الصحائف المكتوبة في جيوبهم ، وقد كان ذلك

مستحيلا مع الألواح الطينية وجلود الحيوانات . قالت المرأة لنفسها : كل شئ يصبح أسهل.

ومن السخف أن سلطة الحاكم كانت ضرورية لإقرار استخدام الهجائية البابلية فى الكتابة على البردى. وثم قانون قديم ما زال يفرض مرور النصوص المكتوبة على مجلس أكبار لفحصها.

بمجرد انتهاء المرأة من عملها، عرضته على "إيليا" الذى كان يتابعها طوال الوقت دون تعليق. وسألته: ما رأيك ، هل تعجبك نتيجة عملى؟

بدا كمن آفاق من غشية ، وقال : نعم. جميل. بلا انتباه لما يقول.

.. لا بد أنه كان يتحدث إلى الله، ولم تشأ أن تزعجه . فرحلت لتحضر كبير الكهنة.

وعندما عادت بصحبة كبير الكهنة، كان "إيليا" لا يزال جالسا فى مكانه.

حدق الرجلان فى بعضهما لوقت طويل دون كلام.

وكان كبير الكهنة هو من بادر بكسر هذا الصمت، وقال: أنت نبى، وتتحدث مع الملائكة. أما أنا بالكاد أفسر القوانين القديمة ، وأنفذ الشعائر ، وأسعى لحماية الناس من الأخطاء التى يرتكبونها. ولهذا أعرف أن هذا الصراع ليس صراعا بين البشر، إنها معركة الالهة ولن أسمح أن أغيب عنها.

قال "إيليا": معجب بإيمانك ، رغم أنك تعبد آلهة لا وجود لها.

وإذا كان الموقف الراهن ، كما تقول، معركة إلهية ، سوف يستخدمني الله كأداة لهزيمة بعل ورفاقه على الجبل الخامس. وسيكون من الأفضل لك أن تأمر باغتيالى.

قال كبير الكهنة : فكرت فى هذا ، لكنه لم يكن ضروريا. ففى الوقت المناسب كانت الالهة تساندنى.

لم يرد "إيليا".

التفت كبير الكهنة ، والتقط البردية التى انتهت المرأة توا من الكتابة عليها، وقال : عمل جيد. وبعد قراءتها بإمعان، خلع الخاتم من إصبعه ، وغمسه فى محبرة صغيرة، وختم به فى الزاوية اليسرى من البردية.

وأضاف: إذا عثر على أى شخص يحمل بردية غير مختومة من كبير الكهنة، يمكن الحكم عليه بالموت.

سألته : لماذا يجب أن تقوم بهذا العمل دائما؟

قال : لأن البرديات تنقل الأفكار، وللأفكار قوة وسلطان.

قالت: إنها مجرد صكوك معاملات تجارية.

قال: لكنها قد تكون خططا حربية، أو صلواتنا السرية. ففى هذه الأيام، بالحروف والبرديات، أصبح من السهل سرقة الإلهام من الناس.

كان من الصعب إخفاء الألواح الطينية أو جلود الحيوانات، لكن الان فى وجود البردى والهجائية البابلية يمكن إنهاء أية حضارة وتدمير العالم.

.. جاءت امرأة تجرى وتصيح : أيها الكاهن! أيها الكاهن! تعال وانظر ما يحدث!!

وتبعه إيليا "والمرأة. كان الناس يتوافدون من كل صوب متجهين نحو نفس المكان. وكاد أن يصبح الهواء غير صالح للتنفس من الغبار المثار.

حتى الأطفال جروا نحو نفس المكان يضحكون ويصيحون ، بينما مشى الكبار ببطء صامتين .

وعندما وصلوا إلى البوابة الجنوبية للمدينة، كان ثمة حشد قد تجمع هناك. شق كبير الكهنة لنفسه طريقا حتى وصل إلى مصدر هذا الاضطراب.

كان أحد حراس "أكبار" جاثيا على ركبتيه ، بذراعين مشرعتين ويدين مربوطتين إلى قطعة خشب كبيرة على كتفيه.

كانت ثيابه ممزقة ، وعينه اليسرى مفقوءة بفرع شجرة صغير، وعلى صدره مكتوب بنصل سكين بعض الحروف الآشورية.

كان "كبير الكهنة" يفهم الكتابة المصرية ، لكن اللغة الآشورية لم تكن مهمة ليتعلمها ويتذكرها . ولهذا كان من الضرورى طلب المساعدة من أحد التجار الموجودين ضمن هذه الحشود. ترجم التاجر الكتابة على صدر الحارس كما يلى: "نحن نعلن الحرب".

لم ينطق أحد بكلمة . وكان فى استطاعة "إيليا" أن يرى البؤس مخطوطا على وجوه الناس.

قال كبير الكهنة لأحد الجنود: أعطنى سيفك . وأطاع الجندى.

طلب كبير الكهنة من الحاكم وقائد الجيش أن يشهدا على ما حدث. وبضربة خاطفة رشق السيف فى قلب الحارس الراكع. أن الرجل وسقط على الأرض. لقد مات ، وتحرر من العذاب والعار اللذين سقط فى براثنهما.

توجه كبير الكهنة إلى الناس وقال: غدا سأذهب إلى الجبل الخامس لتقديم القرابين، وستتذكرنا الآلهة ثانية.

وقبل أن يرحل التفت إلى "إيليا" ، وقال: لقد رأيت ما حدث بعينى رأسك، ما زالت الآلهة تساعدنا.

قال "إيليا" : لدى سؤال واحد لا أكثر.. لماذا ترغب فى رؤية قومك ضحايا وقرابين؟

قال كبير الكهنة : لأن هذا ما يجب القيام به لقتل فكرة ما.

وبعدما سمع "إيليا" كلام كبير الكهنة مع المرأة هذا الصباح، أدرك أن هذه الفكرة هى: حروف الهجاء.

قال "إيليا" فات الأوان. لقد انتشرت هذه الطريقة فى الكتابة عبر أنحاء العالم، ولن يستطيع الآشوريون احتلال كل الأرض.

قال كبير الكهنة: من يدعى أنهم لن يستطيعوا ؟ وبالإضافة إلى هذا فإن آلهة الجبل الخامس ستساند جيوشها .

* * *

لساعات مشى فى الوادى كما فعل بعد ظهر أمس. كان يعرف أنه لابد من ظهيرة ومساء - على الأقل - يسودها السلام، فالحرب لا تنشب فى الظلام لأن الجنود خلاله لا يستطيعون تمييز العدو.

وفى تلك الليلة أدرك ان الله منحه الفرصة لتغيير مصير المدينة التى أخذته فى حضنها.

قال "إيليا" لملاكه: كان سليمان سيعرف ما يجب أن يفعله ، وكذلك داود وموسى وإسحاق . إنهم رجال وثق الله فيهم، أما أنا فمجرد خادم متردد، منحنى الله فرصة لا تعوض.

رد الملاك : يبدو تاريخ الأسلاف مملوءا بأمثلة على وجود الرجال المناسبين في الأماكن المناسبة . ولا تصدق أن الله يطلب من الناس ما يفوق قدراتهم .

قال "إيليا": إذن لابد أنه أخطأ فى تقديره معى.

قال الملاك : مهما كان أثر ذلك، فإنه يتلاشى فى النهاية. تلك هى لحظات النصر والمأساوية فى العالم.

قال "إيليا": لن أنسى ذلك . لكن عندما تتلاشى هذه اللحظات، ستخلف المأساة علامات خالدة، أما لحظات النصر فلا تخلف سوى ذكريات عديمة النفع.

ولم يرد الملاك عليه.

أكمل "إيليا" لماذا، طوال الوقت الذى مكثته فى "أكبار"، لم أجد سبلا لتحقيق السلام؟ ما أهمية نبى وحيد معزول؟!

قال الملاك : ما أهمية الشمس فى رحلتها – وحدها – عبر السموات؟

ما أهمية جبل ينتصب فى منتصف الوادى؟ ما أهمية بئر معزولة؟

.. نعم إنها تشير إلى الطريق التى يجب أن تسلكها القافلة.

قال "إيليا" : قلبى غارق فى الحـــزن. وركـــع رافعـــا ذراعيه إلى السماء.

هل من الممكن أن أموت هنا والآن، حتى لا تتلـــوث يداى قط بدماء أهلى أو أية شعوب غريبة.

وقال للملاك: انظر خلفك . ماذا ترى؟

قال الملاك: تعرف أننى أعمى - لأن عينى ما زالتـــا تحتفظان بنور جلال الله، ولا أستطيع استقبال شئ اخر . فقـــط أستطيع إدراك ما يخبرنى به القلب، أســـتطيع إدراك ذبذبـــات الخطر الذى يهددك ، لكننى لا أستطيع معرفة ماذا يوجد خلفك.

قال "إيليا": حينئذ سأخبرك. خلفى تقع "أكبار". وعنـــد مشاهدتها فى هذا الوقت من اليوم واشعة الشمس تنيرها، ستبدو جميلة وجذابة.

ولقد عشت واعتدت على شوارعها وجدرانها وكـــرم ضيافة أهلها.

ورغم أن سكان المدينة مـــا زالـــوا أســـرى للتجـــارة وهواجسها، فإن قلوبهم ما زالت نقية مثل أية أمة علــى ظـــهر الأرض. بينهم تعلمت الكثير مما لا أعـــرف، وفـــى المقـــابل أنصت إلى مشاكلهم ، وبعـــون الـــرب اســـتطعت أن أفـــض نزاعاتهم الداخلية. وعندما كنت أمر بظروف خطـــيرة ، كـــان هناك من يساعدنى دائما.

لماذا يجب على الاختيار بين إنقاذ هذه المدينة وتحرير قومى من إيزابيل.

أجابه الملاك : لأن الإنسان يجب أن يختار، هنا تكمن قوته وقدرته على اتخاذ القرارات.

قال إيليا: الاختيار صعب. فهو يعني قبول فناء شعب لأجل شعب آخر.

قال الملاك: ربما يصعب على المرء أن يحدد طريقه، لكن من لا اختيار له؛ ميت بالنسبة لله ، رغم أنه يتنفس ويجوب الشوارع.

وبالإضافة إلى ذلك، أكمل الملاك، لن يهلك أحد، فذراعا الخلود مفتوحتان لكل روح، وكل مخلوق له مهمة، فكل شئ تحت الشمس لابد له من سبب ودافع. ثانية - رفع "إيليا" ذراعيه للسموات وقال: ابتعد قومي عن الله بسبب جمال امرأة، وقد تدمر فينيقيا لأن كبير الكهنة ظن أن الكتابة ستهدد الألهة.

لماذا يا من صنعت العالم تفضل التراجيديا في تدوين كتاب المصير؟

وتردد صدى بكاء إيليا في الوادي، وعاد إلى أذنيه .

قال الملاك: أنت لا تعرف عما تتحدث . لا علاقة للتراجيديا بالأمر. إنه القدر الذي لا يمكن تجنبه . كل شئ في الحياة لديه دافع للوجود، فقط تحتاج إلى التمييز بين ما هو مؤقت وما هو دائم.

قال "إيليا" : ما هو المؤقت ، وما هو القدري، وما هو الدائم، وما هي الدروس الناتجة عما لا يمكن تجنبه ؟

وعند انتهاء "إيليا" من سؤاله ، اختفى الملاك.

في هذه الليلة ، وأثناء وجبة العشاء قال "إيليا" للمرأة والصبي: اجمعوا أشياءكم ، فقد نرحل عند أية لحظة.

قالت المرأة: أنت لم تنم منذ يومين. وظهر اليوم جـــاء رسول من الحاكم يسأل عنك ويطلب أن تذهب إلـــى القصـــر. وقلت له إنك فى الوادى.

وستقضى الليلة هناك.

رد "إيليا": تصرف جيد. وذهب مباشرة إلـــى غرفتـــه وراح فى نوم عميق.

٢٠

لم يستيقظ "إيليا" إلا فى صباح اليوم التالى على صوت موسيقى.

وعندما هبط السلم ليرى ما الذى يحدث، كان الصبى قد وصل إلى الباب، وأشار إليه قائلا: انظر ا وكانت عيناه تلمعان من الإثارة، إنها الحرب.

كانت كتيبة من الجنود بكامل عدتهم وعتادهم ، تتجه إلى البوابة الجنوبية لأكبار، وخلفها مجموعة من العازفين يضبطون بدقات طبولهم إيقاع الخطوة العسكرية لهذه الكتيبة .

قال "إيليا" للصبى: أمس كنت خائفا.

قال الصبى: لم أكن أعرف أن لدينا جنودا كثيرين. مقاتلونا هم الأفضل.

ترك "إيليا" الصبى، وخرج إلى الشارع . فقد كان من اللازم مقابلة الحاكم مهما كلفه الأمر.

أيقظت أناشيد الحرب سكان المدينة الذين خرجوا إلى الشوارع مبهورين بما يرونه، فلأول مرة فى حياتهم يرون

المارش العسكرى لكتيبة منظمة بالملابس الحربية، وقد عكست رماحهم ودروعهم الشعاع الأول للشمس.

كان القائد قد قطع شوطا يحسد عليه. فلقد أعد جيشه دون أن يدرى أحد. والآن - أو هكذا يخشى "إيليا" - هو قادر على إقناع الجميع بأن النصر على الآشوريين ميسور.

اندفع "إيليا" بين الجنود حتى وصل إلى المقدمة. وهناك كان القائد والحاكم على جواديهما يقودان الكتيبة.

قال "إيليا" : بيننا اتفاق، وجرى باتجاه الحاكم، أستطيع القيام بمعجزة.

لم يرد الحاكم. وتجاوزت الكتيبة الجدار المحيط بالمدينة إلى الوادى.

قال "إيليا" بإصرار : أنت تعرف أن هذا الجيش محض خيال. والجنود الآشوريون يفوقوننا بخمسة أضعاف، وهم مقاتلون مدربون، فلا تسمح بتدمير "أكبار" .

سأله الحاكم: ماذا تريد منى؟ دون أن يوقف جواده، ليلة أمس أرسلت لك رسولا لنتحدث معا، وأخبرونى أنك خارج المدينة، فماذا فى وسعى؟

قال "إيليا" : مواجهة الآشوريين فى ميدان مفتوح محض انتحار.

أنصت قائد الجيش إلى الحوار دون تعليق - فلقد ناقش خطته مع الحاكم، وكانت بمثابة مفاجأة للنبى الإسرائيلى.

جرى "إيليا" بمحاذاة الخيول ، لا يعرف ما الذى يتحتم عليه أن يفعله.

وغادرت كتيبة الجنود المدينة، متوجهة إلى وسط الوادى.

همس "إيليا" : (أعنى يا رب) مثلما أوقفت الشمس لتعاون "يوشع" فى صراعه ، أوقف الوقت لأتمكن من إقناع الحاكم بخطئه.

وبمجرد أن فكر فى هذا، صاح القائد : توقفوا.

قال "إيليا" لنفسه: ربما هذه هى العلامة ، ولا بد أن أستفيد منها.

صنع الجنود صفين متداخلين ، فبدوا مثل جدار بشرى، وكانت دروعهم مثبتة فى الأرض وسيوفهم مشرعة فى الهواء.

قال الحاكم: هل تصدق أنك تنظر إلى مقاتلى "أكبار".

أجابه "إيليا" : بل أنظر إلى شباب يضحك فى وجه الموت.

قال الحاكم : لتعلم إذن أن هؤلاء مجرد كتيبة . والجزء الأكبر من رجالنا موجودون فى المدينة وفوق الجدران. ووضعنا فوق هذه الجدران مراجل ممتلئة بزيت يغلى سيصب على رؤوس من تسول له نفسه تسلق هذه الجدران .

كذلك وزعنا المخازن على عدة مواقع، وهكذا لن تدمر السهام المشتعلة مخزوننا من الغذاء. ووفقا لتقدير قائد الجيش نستطيع الصمود لحوالى شهرين تحت الحصار.

وهكذا لم يكن الاشوريون يستعدون وحدهم، بل كنا نستعد نحن أيضا.

قال "إيليا" : لم يخبرنى أحد بذلك.

قال الحاكم: لا تنس أنك مهما ساعدت الناس فى "أكبار"، ما زلت أجنبيا، وقد يشتبه بعض العسكريين فيك كجاسوس.

قال "إيليا": لكننى رغبت فى السلام.

قال الحاكم : ما زال السلام ممكنا، حتى بعد بدء المواجهة. لكننا الآن سوف نتفاوض ونحن متكافئان.

وأفصح الحاكم عن إرساله الرسل إلى صيدا وتاير ليبين لهم خطورة موقفهم . وكان من الصعب عليه أن يطلب العون، فقد يظنه الآخرون غير قادر على التحكم فى الموقف. لكنه فى النهاية توصل إلى أن هذا هو الحل الوحيد. كان قائد الجيش قد وضع خطة عبقرية، فعند حدوث المواجهة بين الجيشين، سيعود إلى المدينة لينظم المقاومة. وبعد أن تقتل القوات فى ميدان المعركة أكبر عدد ممكن من جنود العدو، تنسحب إلى الجبال، فهم يعرفون الوادى أفضل من أى شخص آخر ويستطيعون مباغتة الاشوريين بهجمات خاطفة تخفف من إحكام الحصار . وهكذا يفك الحصار ويندحر جيش الاشوريين.

قال الحاكم "لإيليا" : نستطيع الصمود ستين يوما ، لكن هذا لن يكون ضروريا.

قال "إيليا": لكن سيموت كثيرون.

قال الحاكم : جميعنا معرضون للموت، ولم يتملك الخوف من أحد، حتى أنا.

دهش الحاكم لشجاعته، فلم يسبق له أن خاض معركة أبداء بالإضافة إلى أنه أعد خططا للفرار من المدينة عند اقتراب لحظة الصدام.

وهذا الصباح تشاور مع أخلص أصدقائه حول أفضل وسائل الهروب.

لم يكن يستطيع اللجوء إلى صيدا أو تاير، فهناك سيعتبر خائنا. أما "إيزابيل" فستستقبله لأنها تحتاج لرجال تستطيع الوثوق بهم.

لكنه عندما نزل إلى ميدان المعركة، رأى فى عيون الجنود نظرة مشبوبة ، كما لو كانوا قد تدربوا طوال حياتهم لأجل هدف ما، وحانت اللحظة لتحقيقه.

وقال لإيليا: الخوف موجود حتى اللحظة التى يقع فيها المحظور، بعد ذلك لا يجب أن نهدر طاقتنا فى الخوف.

كان "إيليا" مشوشا، فقد انتابه نفس الشعور. لكنه كان خجلا من إدراكه، واستدعى اهتياج الصبى عندما رأى كتيبة الجنود.

قال الحاكم : أما أنت فمستثنى من كل هذا . أنت أجنبى، غير مسلح، ولا حاجة بك للقتال فى سبيل شئ لا تؤمن به.

ولم يتحرك "إيليا".

قال قائد الجيش: سيأتون بلا شك. وبينما كنت مفاجا بذلك، كنا نستعد. ورغم ذلك - ظل "إيليا" ساكنا حيث يقف.

تفحصوا الأفق . لم يكن ثمة غبار، فالجيش الاشورى لم يتحرك.

فى مقدمة الجيش وقف الجنود يحملون رماحهم بثبات، بأسنتها مصوبة تجاه العدو، والرماة متأهبون فى انتظار أمر القائد ليطلقوا سهامهم .

وكذلك كان ثمة نفر من الرجال يبارزون الهواء بسيوفهم ليحتفظوا بعضلاتهم دافئة.

قال القائد مجددا: كل شئ على أهبة الاستعداد وهم سيهجمون .

لاحظ "إيليا" التحفز فى صوت قائد الجيش. فهو لابد يتوق لنشوب المعركة، يتوق لإثبات شجاعته . وبلا شك كان يتخيل الجنود الآشوريين ، وصليل السيوف، والصراخ والهرج، ويرى نفسه وقد تحول إلى مثال للكفاءة والشجاعة يذكره الكهنة.

قاطع الحاكم تدفق أفكار "إيليا"، وقال : لن يتحركوا.

تذكر "إيليا" ما طلبه من الله، بأن تثبت الشمس فى مكانها فى السماء كما فعل الله مع "يوشع" . وحاول أن يتحدث مع ملاكه، لكنه لم يسمع صوته. شيئا فشيئا، خفض حاملو الرماح رماحهم ، وأرخى الرماة أوتارهم، وأغمد حاملوا السيوف سيوفهم.

وبانتصاف النهار أصبحت الشمس حارقة ، وتأثر كثير من المحاربين بهذه الشمس لحد الإغماء، ورغم ذلك ظلت البقية مستعدة طوال اليوم.

وعند غروب الشمس عاد المحاربون إلى "أكبار" ، ويدوا كما لو كانوا أصيبوا بخيبة أمل لبقائهم أحياء ليوم آخر.

وحده "إيليا" مكث فى الوادى، وأثناء تجواله ظهر النور له ، وتجلى ملاك الله أمامه، وقال: سمع الله صلواتك ورأى عذاب روحك.

توجه "إيليا" إلى السماء ليشكر الله على نعمته، وقال : يا الله، يا مصدر كل العظمة والسلطان، أوقف الجيش الاشورى.

قال الملاك: لا. افترضت أن الاختيار له ، وهو ترك الخيارلك .

٢١

قالت المرأة لابنها: لنذهب.

رد الصبى : لا أريد الذهاب. فأنا فخور بجنود "أكبار".

أمرته أمه أن يلحق برفاقه ، وقالت: خذ فقط ما تستطيع حمله.

قال الصبى: نسيت أننا فقراء، وليس لدى الكثير.

صعد "إيليا" إلى حجرته . وتطلع كما لو كان لأول وأخر مرة فى حياته.

وسرعان ما هبط ووقف يتابع الأرملة وهى تخزن أحبارها.

قالت الأرملة: أشكرك ، لأنك ستصحبنى معك. كنت فى الخامسة عشرة عندما تزوجت ولم أكن أعرف شيئا عن الحياة.

حينها قامت عائلتانا بكل الترتيبات، أما أنا فقد تمت تنشئتى وإعدادى لأجل هذه اللحظة ولمساعدة زوجى فى كل الظروف.

سألها "إيليا" هل أحببته؟

قالت المرأة : علمت قلبى أن يفعل ذلك، لأنه لم يكن ثمة اختيار. وأقنعت نفسى بأنها كانت أفضل وسيلة للعيش. وعندما مات زوجى وأسلمت نفسى لرتابة الحياة، توسلت لآلهة الجبل الخامس - وكنت أؤمن بها فى تلك الآونة - أن تنهى حياتى بمجرد أن يصبح طفلى قادرا على الاعتماد على نفسه. كان هذا الحال عند ظهورك. سبق أن أخبرتك بذلك، والآن أرغب فى تكراره. ومنذ هذا اليوم بدأت ألحظ جمال الوادى، دكنة الجبال على صفحة السماء والقمر وهو يغير هيئته مما يساعد القمح على النمو.

طوال الليل، بينما أنت نائم، كنت أتجول فى "أكبار"، أنصت لبكاء الأطفال حديثى الولادة، أغنيات الرجال الذين سكروا بعد الانتهاء من العمل، الخطوات الحازمة للحراس وهم يدورون حول جدران المدينة.

.. كم مرة رأيت الأفق دون الانتباه إلى جماله؟ كم مرة نظرت إلى السماء دون الانتباه لعمقها .؟ كم مرة سمعت الأصوات فى "أكبار" دون أن أدرك أنها جزء من حياتى؟

وعاودتنى الرغبة فى الحياة من جديد. وأخبرتنى أن أدرس الحروف البابلية ، وفعلت ذلك. حينها فكرت فقط فى إسعادك، لكننى تحولت إلى الاهتمام العميق بما أفعله ، واكتشفت شيئا: "جوهر حياتى تشكله رغبتى".

مس "إيليا" شعرها. وكانت هذه هى المرة الأولى.

سألته : لماذا لم تفعل هذا معى دائما؟

قال: لأننى كنت خائفا. أما اليوم، وفى انتظار نشوب المعركة، سمعت كلمات الحاكم وفكرت بك. فالخوف يستمر فقط حتى النقطة التى يبدأ عندها وقوع المحظور، عندئذ يفقد الخوف معناه ، ولا يتبقى لنا سوى الأمل فى أن نكون قد اتخذنا القرار الصواب.

قالت : أنا جاهزة.

قال: سنعود إلى إسرائيل. أخبرنى الرب بما يجب على القيام به، ولهذا ساعود وستستبعد "إيزابيل" من السلطة.

لم تنطق المرأة. فقد كانت فخورة بأميرتها مثل كل النساء الفينيقيات . ولهذا فعند وصولهما إلى إسرائيل ستسعى إلى إقناع رجلها بتغيير رأيه.

قال "إيليا" – كما لو كان قد خمن ما تفكر به – ستكون رحلة طويلة وشاقة، ولن نرتاح حتى أنفذ ما طلبه الرب منى، سيظل حبك سندى، وفى اللحظات التى أضجر فيها أثناء خوضى لمعارك باسمه ؛ سأجد السكينة بين ذراعيك.

ظهر الصبى حاملا حقيبة صغيرة على كتفه . أخذها "إيليا" عنه وقال للمرأة: حانت الساعة. فعندما تعبرين شوارع أكبار تذكرى كل منزل بها وكل صوت لأنك لن تريها ثانية .

قالت: لقد ولدت فى "أكبار". وستبقى المدينة محفوظة فى قلبى للأبد.

وعند سماعه هذا الكلام، أقسم الصبى بأنه لن ينسى قط كلمات أمه.

وإذا تمكن من العودة يوما ما؛ سيرى وجهها على كل شئ فى المدينة.

* * *

كان الظلام قد حل عندما وصل كبير الكهنة إلى سفح الجبل الخامس، ممسكا فى يده اليمنى صولجانا ، وفى يده اليسرى يحمل حقيبة كبيرة أخرج منها زيتا مقدسا دهن به جبهته ويديه. ورسم بالصولجان فى الرمل: ثورا ونمرا ، رمزى إله العاصفة وكبيرة الربات.

وفى النهاية فتح ذراعيه ورفعهما تجاه السماء ليستقبل الرؤيا الإلهية المقدسة. والآلهة لن تتحدث إلى البشر، فقد قالت كل ما رغبت، والآن لا تطلب سوى آداء الشعائر المقدسة.

أما الأنبياء فقد اختفوا من كل مكان فى العالم، باستثناء إسرائيل، البلد المتخلف المؤمن بالخرافة وبأن الإنسان يستطيع الاتصال بمن خلقوا الكون.

واستدعى كبير الكهنة ما حدث قبل أجيال، حين كانت صيدا وتاير جيرانا مع سليمان ملك أورشليم. وكان يبنى معبدا عظيما ، ورغب أن يزخرفه بكل نفيس فى هذا العالم. وأمر بإحضار شجر الأرز من فينيقيا التى كانوا يدعونها (لبنان). ووفر ملك "تاير" كل الخامات المطلوبة وتسلم فى المقابل عشرين مدينة فى الجليل. لكنه لم يرض بهذه المدن، فساعده سليمان كذلك فى تشييد أولى سفنه، والآن أصبحت فينيقيا مالكة أكبر أسطول تجارى فى العالم.

وفى هذا الوقت كانت إسرائيل بلدا عظيما، رغم عبادة رب واحد لم يكن حتى اسمه معروفا، فقط يدعى: الله.

ونجحت أميرة من صيدا فى إعادة سليمان إلى الإيمان الحقيقى. وشيد مذبحا لآلهة الجبل الخامس.

وأصر الإسرائيليون أن (الله) قد عاقب أكثر ملوكهم حكمة، وابتلاه بالحروب التى هددت ملكه وسلطانه.

واستكمل ابنه (رحبعام) العبادة التى ابتدأها أبوه. وأمر بصناعة عجلين ذهبيين عبدهما الناس فى إسرائيل.

ومنذ ذلك الحين ظهر الأنبياء وبدأوا صراعا لا ينتهى ضد الحكام وقوانينهم.. كانت إيزابيل على حق. فالسبيل الوحيد للحفاظ على الإيمان الحقيقى هو إبعاد الأنبياء.

ورغم أنها امرأة رقيقة، تربت على التسامح والاشمئزاز من مجرد التفكير فى الحرب، فقد أدركت أنه فى لحظة لا بد قادمة، ستصبح القوة هى الحل الوحيد. وستغفر الالهة التى خدمتها، تلوث يديها بالدماء.

قال كبير الكهنة للجبل الصامت أمامه: قريبا ستلطخ الدماء يدى.

فكما كان الأنبياء لعنة إسرائيل، فالكتابة لعنة فينيقيا.. كلاهما جلب شرا لا سبيل للخلاص منه، وكلاهما يجب إيقافه عندما يتيسر ذلك.

لا يجب أن يبتلينا "إله الطقس" بالقحط الآن.

كان كبير الكهنة مشغولا بما حدث هذا الصباح، فجيوش العدو لم تهاجم. فى الماضى خذل إله الطقس فينيقيا لأنه كان غاضبا على سكانها. ونتيجة ذلك ظلت المصابيح مضاءة، وهجرت الأغنام والأبقار صغارها، وفشل القمح والشعير فى النضج.

وأمر "إله الشمس" بإرسال الكائنات المهمة للبحث عنه، الصقر وإله العاصفة، لكن لم ينجح أحد فى العثور عليه.

فى النهاية ، أرسلت الربة العظيمة "نحلة"، ونجحت النحلة فى العثور عليه نائما فى الغابة فلدغته، فاستيقظ فزعا وبدأ يحطم كل شئ حوله.

وكان من الضرورى تقييده وإزالة الغضب من روحه، ومنذ ذلك الوقت عاد كل شئ إلى طبيعته.

وإذا قرر الرحيل ثانية ، لن تنشب المعركة ، وسيظل الآشوريون فى مكانهم عند مدخل القرية، وستظل أكبار موجودة.

قال كبير الكهنة: الشجاعة خوف يصلى. وهذا سبب وجودى هنا لأننى لا أستطيع أن أبدو مترددا عندما تحين المواجهة. يجب أن أقدم للمحاربين السبب الذى من أجله يدافعون عن المدينة.

والبئر ليس سببا ، ولا الموقع التجارى ، ولا قصر الحاكم.

سنواجه الجيش – الأشورى ، لأننا يجب أن نقدم نموذجا يحتذى به .

وسيضع انتصار الآشوريين نهاية لتهديد الأبجدية لكل الأزمان القادمة. سيفرض الغزاة لغتهم وعاداتهم ، لكنهم سيستمرون فى عبادة نفس آلهة الجبل الخامس، وهذا ما يهم بحق.

وفى المستقبل سيحمل ملاحونا بطولة محاربينا إلى بلاد أخرى. وسيذكر الكهنة أسماء وتاريخ مقاومة أكبار للغزو الآشورى . وسيرسم الرسامون الحروف المصرية على البردى، أما النصوص البابلية فسيقضى عليها. وستظل النصوص المقدسة فى أيدى من خلقوا لدراستها.

عندئذ ستحاول الأجيال التالية تقليد ما سبق أن قمنا به ، وسنبنى عالما أفضل لكن الآن، علينا أن نخسر هذه المعركة أولا. سنقاتل بشجاعة، رغم ضعف موقفنا، وسنموت فى عزة.

وفى هذا اللحظة أنصت كبير الكهنة لليل وأدرك أنه على حق – فهذا الصمت لابد يسبق معركة مهمة ، لكن الناس فى "أكبار" أساءوا تفسيره، ووضعوا أسلحتهم جانبا، وانصرفوا للاستمتاع فى لحظة تتطلب اليقظة والتحفز. ولم ينتبهوا جيدا للمثال الذى تقدمه الطبيعة: تصمت الحيوانات عند دنو الخطر.

لتتحقق مشيئة الآلهة . وربما لا تنطبق السماء على الأرض لأننا فعلنا الصواب وأطمعنا التقاليد. هذا ما انتهى إليه كبير الكهنة.

٢٢

اتجه "إيليا" وبصحبته المرأة والصبى إلى الغرب نحو إسرائيل. ولم يضطروا للمرور بمعسكر الآشوريين لأنه كان فى الجنوب.

وجعل "البدر" السير أسهل ، رغم انه أدى إلى انعكاس ظلال غريبة وأشكال مخيفة على صخور وأحجار الوادى.

ومن أعماق الظلام ظهر ملاك الله. وكان يحمل سيفا من نار فى يده اليمنى، وسأله: إلى أين أنتم ذاهبون؟

قال "إيليا" : إلى إسرائيل.

سأله الملاك: هل أمرك الله بذلك؟

قال "إيليا" : أعرف المعجزة التى يتوقعها الرب منى. والآن أعرف أين أستطيع تحقيقها.

كرر الملاك سؤاله: هل أمرك الله بذلك؟

قال "إيليا": لا.

قال الملاك: إذن عد إلى المكان الذى جئت منه، لأنك لم تنفذ ما قدر.

ولابد أن يأمرك الله بذلك.

قال "إيليا": إذا لم يكن هناك شئ آخر ، اسمح لهم بالرحيل، فلا داعى لبقائهم.

واختفى ملاك الله. فأسقط "إيليا" الحقيبة التى يحملها وجلس وسط الطريق يبكى بمرارة.

سألته المرأة والصبى، ولم يكونا قد رأيا أى شئ: ماذا حدث؟

قال "إيليا" : سنعود إلى "أكبار"، وفق مشيئة الله.

* * *

لم يستطع أن ينام جيدا، واستيقظ فى الليل مستشعرا التوتر الذى يملأ الهواء حوله، ورياح الشر التى تصفر فى الشوارع تبث الرعب والاضطراب.

تلا فى صمت : "فى حب امرأة اكتشفت حبا للمخلوقات كافة".

احتاجها. وأعرف أن الله لن ينسى أننى أحد أدواته، وربما أكون أضعف أداة اختارها - أعنى يارب . أنا فى حاجة للسكينة وسط كل هذه المعارك.

واستدعى ما قاله الحاكم عن "لا جدوى الخوف" ، ورغم ذلك جافاه النوم.

همس: أحتاج الطاقة والهدوء ، فامنحنى بعض الراحة ما دام ذلك ممكنا.

وفكر فى استدعاء ملاكه والتحدث معه لبرهة، لكنه أدرك أنه قد يخبره بأشياء لا يرغب فى سماعها، فغير رأيه.

وأثناء بحثه عن الهدوء هبط السلالم. حيث كانت الحقائب التى أعدتها المرأة لرحلتها لم تفرغ بعد. فكر فى الرجوع إلى حجرته ، وتذكر ما قاله الرب لموسى : "من هو الرجل الذى بنى بيتا جديدا ولم يدشنه . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب ويدشنه رجل آخر".

ولم يكونا قد عرفا بعضهما حتى الآن. لكنه كان ليلا مملا، وليست هذه باللحظة المناسبة للقيام بهذا.

قرر أن يفرغ الحقائب ويعيد كل شئ إلى مكانه . اكتشف، بالإضافة – إلى الملابس القليلة التى تمتلكها، أنها كانت تحمل الأدوات اللازمة لرسم الحروف البابلية . التقط قلم السمة (المرقم) ، وبلل لوحا صغيرا من الطين ، وبدأ فى رسم بعض الحروف تعلم كتابتها من متابعته للمرأة وهى تعمل .. يا له من شئ بسيط وغبى. هكذا همس لنفسه، أن تسعى لتحويل ذهنك لاهتمامات أخرى. فكثيرا وهو فى طريقه للبئر، ما كان يسمع النسوة يعلقن : "سرق الإغريق أهم اختراعاتنا" ، لكن "إيليا" لم يكن ير الأمر كذلك ، فالتغيير الذى أدخله الإغريق بإضافة الحروف المتحركة ، حول حروف الكتابة البابلية إلى حروف هجائية (ألفابيت Alphabet) يستطيع الناس فى كل البلاد استخدامها.

وبالإضافة إلى ذلك أطلقوا على رقائقهم الـ (بيبليا) نسبة إلى اسم المدينة التى أخترعت فيها هذه الكتابة.

وكانت الـ (بيبليا) الإغريقية تكتب على جلود الحيوانات. ورأى "إيليا" أن هذه طريقة هشة لحفظ الكلمات ، فالجلود مقاومتها أقل من الألواح الطينية ، وكذلك يسهل

سرقتها . أما البردى ؛ تبهت الكتابة عليه بعد فترة من تداوله ، وتتلفه المياه كذلك.

الـ (بيبليا) والبردى لن يدوما، أما ألواح الطين فمقدر لها أن تخلد للأبد - هكذا قال "إيليا" لنفسه.

وإذا ما نجت "أكبار" من الدمار، سوف يستشير إيليا الحاكم بأن يأمر بتدوين تاريخ البلد على ألواح طينية تحفظ في حجرة خاصة، وهكذا تستطيع الأجيال القادمة الرجوع إليها. وبهذه الطريقة لن تنسى مآثر المحاربين وكلمات الشعراء، إذا ما هلك الكهنة.

وشغل "إيليا" نفسه لبعض الوقت بكتابة نفس الحروف مرات متعددة بترتيب مختلف كل مرة ، مكونا بذلك عدة كلمات. وسحرته نتيجة عمله وجعله هذا الفعل المتكرر يشعر بالراحة، فعاد إلى سريره.

* * *

استيقظ "إيليا" بعد فترة على صوت ارتطام باب حجرته بالأرض.

لم يكن حلما ، ولم تكن جيوش الله فى معركة .

تداعت الظلال من كل صوب، تصرخ مثل المجانين بلغة لم يفهمها .. إنهم الآشوريون.

سقطت أبواب أخرى ، وتهاوت الجدران تحت ضربات المعاول القوية ، واختلطت صرخات الغزاة بالبكاء الذى جاء من الساحة. حاول النهوض ، لكن أحد الظلال دفعه إلى الأرض.

جاءه صوت مكتوم لاهتزاز الأرض بأسفل.

"النار" – هكذا ظن "إيليا" – إنهم يشعلون النار في المنزل.

سمع أحدهم يقول بالفينقية : إنه أنت . أنت القائد ، وتختبئ كجبان في منزل امرأة.

نظر إلى وجه الرجل الذى كان يتحدث ، وكانت ألسنة اللهب تضئ الحجرة، فاستطاع أن يرى رجلا بلحية طويلة في زى عسكرى ، فتأكد أن الآشوريين دخلوا المدينة.

تساءل باضطراب: لقد قمتم بالغزو ليلا؟

لم يرد الرجل . ورأى "إيليا" بريق السيوف وهى تخرج من أغمادها، وجرح أحد المحاربين ذراعه الأيمن.

أغلق "إيليا" عينيه، وتوالت مشاهد حياة كاملة أمامه فى جزء من الثانية. ثانية – رأى نفسه يلعب في طرقات المدينة التي ولد بها ، ويسافر إلى أورشليم لأول مرة في حياته، ويشم رائحة الخشب المقطوع في دكان النجارة، مأخوذا باتساع البحر وبالملابس التي يرتديها الناس في البلاد الساحلية الكبيرة ورأى نفسه يجوب وديان وجبال الأرض الموعودة، متذكرا المرة الأولى التى رأى فيها "إيزابيل" وكيف كانت شابة ساحرة فتنت كل الذين اقتربوا منها.

وشهد مجددا المذبحة لتى تعرض لها الأنبياء، وسمع صوت الله يأمره بالخروج إلى الصحراء. ورأى ثانية عيون المرأة التي انتظرته عند أبواب صرفة، التي يدعى سكانها "أكبار"، وأدرك لماذا أحبها من اللحظة الأولى.

ومرة أخرى تسلق الجبل الخامس، وأعاد طفلا إلى الحياة، ورحب الناس به كحكيم وقاض. ونظر إلى السماء، حيث النجوم تغير مواقعها بسرعة، وكان مأخوذا بالقمر الذى تمر عليه الفصول الأربعة فى نفس اللحظة، الشعور بالحرارة والبرودة والخريف والربيع، مجربا المطر ولمعان البرق. وانزلقت ملايين السحب بأشكال مختلفة ، وعادت مياه الأنهار إلى السريان - ثانية. وعاش مجددا اليوم الذى رأى فيه أول خيمة آشورية تنصب في الوادى وتلتها الثانية ثم عديد من الخيام ، وكذلك الأيام التى كانت الملائكة تأتى خلالها وتروح، السيف المشتعل على الطريق إلى إسرائيل ، ليال بلا نوم. الرسومات على الألواح اليطينية، و ... و ... عاد ثانية للحاضر، وشغله ما يحدث في الدور السفلى ، فقد كان عليه أن ينقذ الأرملة وابنها مهما كلفه الأمر.

قال لأحد جنود الأعداء: النيران . المنزل يحترق.

لم يكن خائفا، وكل ما شغله الأرملة وابنها.

دفع أحدهم رأس "إيليا" إلى الأرض، فشعر بطعم الأرض فى فمه؛ فقبله وأخبره كم يحبه ووضح له أنه فعل ما بوسعه ليتجنب ما حدث. وحاول أن يتحرر من أسر هؤلاء الجنود، لكن أحدهم وضع قدما على صدره.

قال لنفسه : لا بد قد فرت. وهم لن يؤذوا امرأة بلا حول أو قوة . أخذت قلبه انقباضة فكاد أن يتوقف. فربما أدرك الله أنه رجل غير مناسب، ووجد نبيا غيره ينقذ إسرائيل من الخطيئة . . .اء الموت فى النهاية ، بالطريقة التى كان يأملها

ليصبح شهيدا. تقبل قدره وانتظر الضربة القاضية. مرت الثوانى، والأصوات ما زالت صارخة ، والدم يسيل من جرحه، وتمنى أن تأتى الضربة القاضية. صرخ : "اطلب منهم أن يقتلونى فى الحال" ، وكان يعرف أن أحدهم – على الأقل – يتحدث لغته.

ولم يلتفت أحد لكلماته . كانوا يتجادلون بحدة ، كما لو أن ثمة خطأ قد حدث.

بدأ بعض الجنود يركلونه، ولأول مرة لاحظ "إيليا" أن غريزة البقاء تعلن عن نفسها وخلق هذا بداخله شعورا بالهلع.

همس بيأس: لا أستطيع أن أرغب فى الحياة أكثر من هذا ، لأننى لن أغادر هذه الغرفة حيا.

ولم يحدث شئ . وبدا العالم كما لو كان قد علق إلى ما لا نهاية فى هذا التشوش من الصراخ والضجيج والغبار.

ربما يكون الرب قد قام بمثل ما قام به مع "يوشع"، ويكون الوقت قد توقف وسط المعركة. عندئذ سمع صرخات المرأة تأتيه من أسفل . وكانت كمن يحاول مقاومة شخص قوى، فدفع "إيليا" اثنين من الحرس وعانى ليقف على قدميه ، لكن سرعان ما تلقى ضربة على رأسه جعلته يسقط فاقدا الوعى.

* * *

استعاد وعيه بعد دقائق قليلة، وكان الآشوريون قد سحبوه إلى الشارع. رفع رأسه، و كان ما زال يعانى من الدوار ، فرأى كل المنازل المحيطة به تحترق. صرخ: امرأة بريئة ، بلا حول أو قوة ، أمسكوا بها.. أنقذوها..!!

.. صرخات ، نـــاس يـــهرولون فــــى كــــل اتجـــاه ، واضطراب فى كل مكان.

حاول النهوض، لكنه سقط أرضا من جديد.

توسل "إيليا" : يا الله، لك أن تفعل بى ما تشاء، لأننــــى وهبت حياتى وموتى لنصرتك. لكن أنقذ المرأة التى آوتنى.

رفعه شخص ما من ذراعيه، وقال له ضابط آشـــورى يعرف لغته:

تعال وشاهد، أنت تستحق.

قيده حارسان ودفعاه باتجاه الباب. وسرعان ما التهمت النيران المنزل، وكشف الضوء المنبعث عنها كل شئ حولها.

سمع صرخات تأتى من كل اتجاه: أطفال ينشــــجون ، عجائز يتوسلون لنيل العفو، نساء يائسات يبحثن عن أطفالـــهن. ورغم ذلك حاول التقاط أية أصوات قد تساعده على إنقاذ هـــذه المرأة التى وفرت له المأوى والحماية.

ماذا يحدث؟ امرأة وطفلها محبوسان بالداخل..!! لمـــاذا تفعلون هذا بهما؟

قال الضابط الآشورى : لأنهما حاولا إخفــــاء حـــاكم "أكبار".

قال "إيليا" : أنا لست الحاكم ! أنتــــم ترتكبـــون خطـــأ فادحا!

دفعه الضابط الآشورى إلى الباب وكان الســــقف قـــد تهاوى من النيران.

وكانت المرأة نصف مدفونة بين الحطام. ولم يستطع "إيليا" أن يرى سوى ذراعها يتحرك فى يأس من ناحية إلى أخرى. كانت تطلب العون، وتتوسل لهم ألا يتركوها تحترق وهى حية.

تساءل دهشا : لماذا تبقون علىّ؟ وتفعلون هذا بها؟

قال الضابط الآشورى: نحن لا نبقى عليك، بل نرغب ان تتالم إلى أقصى حد.

لقد مات قائدنا ميتة دنيئة، رجم حتى الموت أمام جدران المدينة.

ورغم أنه جاء يسعى إلى حفظ الحياة، حكمت عليه بالموت. والآن ستلاقى نفس المصير.

صارع "إيليا" فى يأس ليحرر نفسه، لكن الحراس حملوه بعيدا.

ومروا فى شوارع "أكبار" تلفحهم حرارة جهنمية . كان الجنود يعرقون بغزارة، وبدا بعضهم كما لو كانوا أصيبوا بصدمة مما شهدوه.

وكان "إيليا" يصرخ ويعلن تذمره ضد السماء، لكن الجنود الاشوريين كانوا صامتين مثل الله ذاته.

وصلوا إلى الساحة. كان معظم المدينة مشتعلا، وفحيح ألسنة اللهب يتداخل مع صراخ سكان "أكبار".

"كم هو حسن أن الموت ما زال موجودا.

فمنذ ذلك اليوم فى الإسطبل ، كثيرا ما فكر "إيليا" فى هذا الأمر..!!

كانت جثث محاربى "أكبار" معظمها عارية، مبعثرة فى شوارع المدينة ورأى الناس يجرون فى كل اتجاه، لا يعرفون إلى أين يتجهون ، ولا يدركون ما يرونه، لم يتبق لهم سوى التظاهر بفعل شئ ما ، يقاتلون ضد الموت والدمار.

فكر "إيليا" : لماذا يفعلون هذا؟ ألا يرون أن المدينة قد وقعت في أيدى العدو، ولا سبيل للفرار؟

كل شئ حدث بسرعة. واستغل الاشوريون ميزة التفوق العددى، ونجحوا فى ادخار مقاتليهم بلا معركة.

توقف الجنود ومعهم "إيليا" فى منتصف الساحة.. وأجبر "إيليا" على السجود ويداه مقيدتان. ولم يعد يسمع صرخات المرأة، فربما تكون قد ماتت سريعا، دون أن تعانى من العذاب البطيئ عند احتراقها حية.

أخذها الله بين يديه، واحتضنت ابنها إلى صدرها.

أحضرت مجموعة أخرى من الجنود الاشوريين سجينا تشوه وجهه بلكمات لا حصر لها. ورغم ذلك تعرف إيليا عليه، إنه قائد الجيش.

صاح القائد: تعيش "أكبار"ا تعيش فينيقيا ومحاربوها الذين يشتبكون مع العدو فى النهار! الموت للجبناء الذين يهجمون فى الظلام..!!

وبالكاد أنهى جملته ، ليهوى سيف اشورى وتتدحرج رأس القائد على الأرض.

قال "إيليا" لنفسه: جاء دورى . سأقابلها ثانية فى الجنة حيث سنسير متشابكى الأيدى. وعند هذه اللحظة اقترب أحد

سكان "أكبار" ممن اعتادوا حضور الاجتماعات فى الساحة. وتذكر "إيليا" أنه قد ساعده وفض له نزاعا خطيرا مع جار له.

كان الآشوريون يتناقشون فيما بينهم، وأصواتهم تعلو وتعلو، وكانوا يشيرون نحوه. سجد الرجل، وقبل قدم أحد القادة الآشوريين، مادا يده تجاه الجبل الخامس. وكان يبكى مثل طفل. وبدأت تخف حدة الغزاة فى نقاشهم الذى بدا بلا نهاية. كان الرجل يتوسل ويبكي طوال الوقت مشيرا إلى "إيليا" وإلى المنزل، حيث اعتاد الحاكم أن يعيش.

بدا الجنود غير مقتنعين بنتيجة نقاشهم. وفى النهاية اقترب الضابط الذى يتحدث لغة "إيليا" وقال: جاسوسنا عرف الرجل، ويقول إننا أمسكنا الرجل الخطأ. وهذا الجاسوس أعطانا خرائط المدينة، ونحن نثق فيما يقول.

.. لست من نرغب فى قتله. ودفعه بقدمه، فسقط "إيليا" على الأرض.

وأكمل الضابط: ويقول كذلك إنك يجب أن تذهب إلى إسرائيل وتطيح بالأميرة التى استولت على العرش. فهل هذا حقيقى؟

لم يرد "إيليا".

قال الضابط بإصرار: أخبرنى إذا كان ما قاله حقيقيا وعندئذ تستطيع أن تذهب من هنا وتعود إلى منزلك فى الوقت المناسب لتنقذ المرأة وابنها.

قال "إيليا": نعم، إنه حقيقى. فربما الله استجاب له وسيعاونه على إنقاذهما.

أكمل الضابط الآشورى: نستطيع أن نأخذك معنا أسيرا ونحن متوجهون إلى صيدا وتاير. لكن ما زالت أمامنا معارك كثيرة، وسوف تشكل عبئا على ظهورنا.

ويمكننا أن نطلب فدية مقابل إطلاق سراحك، لكن نطلبها ممن؟ فأنت أجنبى حتى فى بلدك. ووضع الضابط قدمه على وجه "إيليا" ، أنت بلا نفع. لا فائدة منك للعدو أو للأصدقاء ، تماما مثل مدينتك هذه، فهى لا تستحق أن نترك جزءا من جيشنا هنا. لنضمن ولاءها لنا. فعندما نغزو المدن الساحلية ستصبح "أكبار" فى يدنا بلا شك.

قال "إيليا": عندى سؤال واحد، مجرد سؤال واحد.

نظر الضابط إليه بحذر.

قال "إيليا" : لماذا هجمتم فى الليل؛ ألا تعلم أن الحروب تنشب فى النهار.

أجاب الضابط: نحن لم نكسر قانونا، فلا يوجد عرف يحرم هذا.

ولا تنس أننا انتظرنا طويلا حتى اعتدنا على هذه الأرض.

أما أنتم فقد وقعتم تحت سطوة العادات للحد الذى نسيتم عنده أن الزمن تغير. وبدون أية كلمة أخرى، غادرته المجموعة.

اقترب الجاسوس وحل وثاقه، وقال : قطعت على نفسى عهدا بأننى ذات يوم سوف أرد لك جزاء كرمك، ولقد وفيت عهدى. فعندما دخل الاشوريون القصر أخبرهم أحد

الخدم أن الرجل الذى يبحثون عنه اختبأ فى منزل الأرملة. وعندما ذهبوا إلى هناك تمكن الحاكم الحقيقى من الفرار.

لم يكن إيليا منصتا . وكانت النار منتشرة فى كل مكان، والصرخات لا تنقطع.

ووسط هذا الاضطراب، كان هناك دليل على أن جماعة ما تحافظ على النظام، مطيعة أمرا غير مرئى، فقد كان الآشوريون ينسحبون فى صمت.

وانتهت معركة "أكبار".

* * *

قال لنفسه: لقد ماتت. لا أريد الذهاب إلى هناك، فهناك هى ميتة، وربما تكون أنقذت بمعجزة، وستأتى لتبحث عنى.

لم يطاوعه قلبه لينهض ويذهب إلى المنزل الذى عاشت به الأرملة.

وفى هذه اللحظة كان ثمة صراع بين "إيليا" ونفسه يتجاوز رغبته فى التأكد من حب المرأة، إلى حياتها نفسها وإيمانه بتدابير الله والرحيل من مسقط رأسه ، وفكرة أنه تحملى مهمة وأنه قادر على إتمامها.

نظر حوله باحثا عن سيف يستطيع أن ينقذ به حياته ، لكن الآشوريين أخذوا معهم كل سلاح فى "أكبار".

فكر أن يلقى نفسه فى النيران المشتعلة بالمنازل، لكنه خشى الألم.

للحظات وقف مشلولا. وشيئا فشيئا بدأ يستعيد وعيه بالموقف الذى وجد نفسه به. لابد أن المرأة وطفلها ماتا،

ويجب عليه أن يدفنهما وفق العادات . وفى هذه اللحظة لم يكن أمامه سوى انتظار عون الله، موجودا كان أو غير موجود.

وبعد إنهاء واجبه الدينى، سيستسلم للألم والشك.

وبالإضافة إلى ذلك ثمة احتمال بأنهم ما زالوا أحياء. وهو لا يطيق البقاء هناك بلا شئ يفعله.

همس لنفسه : لا أريد رؤية وجوههم المحترقة، وجلدهم وقد سقط عن لحمهم، والان أرواحهم تهيم فى السماء.

* * *

رغم ذلك مشى تجاه المنزل مصدوما ومعميا بالدخان الذى حال دونه والعثور على الطريق. تدريجيا بدأ يدرك حال المدينة. فرغم انسحاب العدو، كان الهلع مسيطرا عليها ، وما زال الناس يهيمون بلا هدف، يبكون، ويتوسلون إلى الألهة من أجل موتاهم.

بحث عمن يساعده. ولم يجد سوى رجل وحيد فى حالة ذهول شديد، وبدا عقله شاردا.

قال لنفسه: من الأفضل أن تمضى فى طريقك دون أن تطلب العون. فهو يعرف "أكبار" كما لو كانت وطنه، وهو قادر على توجيه نفسه رغم عجزه عن التعرف على أماكن كثيرة اعتاد المرور بها.

فى الطرقات أصبحت الصرخات التى يسمعها أكثر هدوءا وترابطا. فقد بدأ الناس يفهمون أن المأساة قد وقعت ويجب عليهم التعامل معها.

صاح واحد: يوجد رجل مصاب هنا.

قال اخر: نحتاج مزيدا من الماء، وإلا لـــن نســتطيع السيطرة على هذه النيران.

صاحت امرأة: ساعدونى! زوجى محاصر.

وصل إلى المكان حيث كان يعيش كصديق، منذ عــدة شهور مضت.

كانت امرأة عجوز تجلس وسط الشارع، بالقرب مــن المنزل الذى يقصده، عارية تماما.

حاول "إيليا" أن يساعدها، لكنها دفعته بعيدا.

وصرخت المرأة العجوز: إنها تموت. إفعل شيئا. أبعـد هذا الجدار عنها.

وبدأت تصرخ فى هستيرية، فحملها "إيليا" بين ذراعيــه ووضعها جانبا . ومنعه ضجيجها من سماع أنين المرأة.

كان كل شئ حوله قــد تحطــم، الســقف والجــدران تهاوت، وكان من الصعب أن يتعرف على المكان الذى راهـــا فيه آخر مرة.

كانت ألسنة اللهب قد خمدت ، لكن ظلت الحــرارة لا تطاق.

مشى على الأحجار التى غطت الأرضية، وذهب إلــى المكان حيث توجد غرفة المرأة.

كان قادرا على تسمع أنينها رغم الهرج فى الخـــارج، نعم هو صوتها.

نفض الغبار من فوق ملابسه، كما لو كان يسعى إلــى تحسين مظهره. وظل صامتا فى محاولة للتركيز. سمع طقطقـة

النيران، وصرخات استنجاد لنــاس مدفونيــن تحــت أنقــاض المنازل المجاورة، وشعر برغبة ملحة فى إخبارهم أن يصمتــوا لأنه يجب عليه اكتشاف مكان المرأة وابنها.

بعد فترة طويلة سمع الصوت ثانية، شخص ما يخمـش الخشب تحت قدميه. سقط على ركبتيه ، وبدأ الحفر مثــل مــن أصابه مس. أزال القذارة والأحجار والخشب، وقــال: أتوســل إليك. لا تموتى.

سمع صوتها يقول: دع الأحجار فوقى ، لا اريــدك أن ترى وجهى. اذهب وساعد ابنى.

واستمر "إيليا" يحفر، وكررت طلبها: اذهــب واعــثر على جسد ابنى . أتوسل إليك نفذ ما أطلبه منك.

مال رأس "إيليا" على صدره وبكى، وقال: لا أعــرف المكان المدفون به ابنك.

أتوسل إليك لا ترحلى . كم أتوق لبقائك معى. أحتــاج أن تعلمينى كيف أحب، قلبى جاهز الآن.

قالت: قبل وصولك ، تمنيت الموت طوال ســنوات . ولابد أنه سمعنى وجاء يبحث عنى . وأنت.

عض "إيليا" شفتيه دون أن ينطق . عندئذ لمس شخص ما كتفه . جفل "إيليا" واستدار، فرأى الصبــى. كــان مغطــى بالغبار والسناج ، لكنه بدا سليما.

سأله الصبى: أين أمى؟

أجابه صوت أمه من تحت الحطام : أنا هنا يا ولــدى. هل أصبت؟

بكى الصبى ، فاحتضنه "إيليا".

قال الصوت الواهن : أتبكي يا ولدى. لا تفعل ذلك. لقد استغرقت أمك وقتا طويلا لتعرف أن للحياة معنى، وآمل أن أكون قادرة على تعليمك إياه. كيف حال المدينة التي ولدت بها؟

ظل "إيليا" والصبى صامتين ، يحدق كلاهما في الاخر.

قال "إيليا" كذبا : بخير. مات عدد قليل من المحاربين ، لكن الآشوريين انسحبوا . لقد جاءوا ليثأروا من الحاكم لموت أحد قادتهم.

خيم الصمت ثانية . وجاء صوت أضعف مما سبق: قل لى إن مدينتى آمنة سالمة.

أدرك "إيليا" أنها ربما تموت عند أية لحظة، فقال لها: المدينة سالمة، وابنك بخير.

سألته: وماذا عنك؟

قال: نجوت.

وعرف أنه بكلماته هذه يحرر روحها ويدعها تموت في سلام.

قالت المرأة بعد فترة : أطلب من ولدى أن يسجد على ركبتيه ، وأريدك أن تقسم لى باسم الرب الإله.

قال: لك ما ترغبين، أى شئ.

قالت: أخبرتنى ذات مرة أن الله موجود فى كل مكان، وصدقتك. وقلت لى إن الروح لا تصعد إلى قمة الجبل الخامس، وصدقتك كذلك. لكنك لم تبين لى إلى أين تذهب.

أما ما أريدك أن تقسم عليه فهو أنكما - أنت وطفلى - لن تبكيا من أجلي ، وأن كلا منكما سيعتنى بالآخر حتى يشاء الله لكما أن تعودا إليه.

ومن هذه اللحظة ستتوحد روحى بكل ما عرفته على الأرض، وسأصبح أنا الوادى والجبال التى تحيط بالمدينة والناس التى تمشى فى الشوارع، أنا الجرحى والمتسولين ، حراس المدينة وكهنتها، تجارها ونبلاؤها. أنا الأرض التى يطأونها والبئر التى تروى ظمأهم.

لا تبكيا من أجلي ، فليس من سبب للحزن. من هذه اللحظة أنا "أكبار".. المدينة الجميلة. خيم سكون الموت، وتوقفت الريح عن الهبوب.

ولم يعد "إيليا" يسمع الصرخات فى الخارج ولا طقطقة النار فى المنازل المجاورة، كل ما سمعه هو سكون الموت الذى يكاد يلمس من فرط كثافته.

أبعد "إيليا" الصبى، ومزق ملابسه وتوجه إلى السماء، وبكل ما فى رئتيه من هواء صاح: يا الله.. يا إلهى ! لأننى رحلت عن إسرائيل ولم أستطع تقديم دمائى مثلما فعل الأنبياء الذين مكثوا هناك، دعانى أصدقائى بالجبان، وبالخائن دعانى أعدائى.

وأكلت ما جلبته لى الغربان، وعبرت الصحراء إلى صرفة ، التى يدعى سكانها بالأكبار ، وأرشدتنى إلى حيث قابلت امرأة ، وتعلم قلبى أن يحبها.

ورغم ذلك لم أنس قط مهمتي الحقيقية ، فطوال الأيام التي قضيتها هنا، كنت على استعداد دائم للرحيل.

والآن تحولت "أكبار" الجميلة إلى أطلال، المرأة التي وثقت بي مدفونة تحتها. فأين اقترفت الخطيئة يا الله؟ ومتى تخليت عما طلبته مني؟

وإذا كنت غير راض عني، فلماذا لا تأخذني من هذا العالم، ولا تعذب ثانية الذين آووني وأحبوني.

لا أفهم تدابيرك. وأرى أفعالك تخلو من العدل.

لقد تحملت كل المعاناة التي فرضتها علي، وأنا ضعيف وغير كفء، فانزع النفس مني، لأنني تحولت إلى أطلال ونار وغبار.

وبين النار والدمار، ظهر النور إلى "إيليا"، ورأى ملاك الله أمامه.

سأله "إيليا": لماذا أنت هنا؟ ألا ترى أن الوقت متأخر جدا؟

قال الملاك : جئت لأقول لك ثانية إن الله سمع صوتك وتوسلك ، ولن تسمع صوت الملاك بعد ذلك، ولن أقابلك ثانية حتى تأتي أيام المحاكمة.

امسك "إيليا" يد الصبي، وسارا بلا هدف.

وكان الدخان، قبل أن تشتته الرياح، قد تكاثف في الشوارع مما جعل الهواء صعبا تنفسه.

"قد يكون حلما أو كابوسا" هكذا ظن إيليا.

قال الصبي: لقد كذبت على أمي. المدينة دمرت.

قال : ماذا يهم فى ذلك؟ فإذا كانت لم تر ما دار حولها، فلماذا لا تدعها تموت فى سلام؟

قال الصبى: لأنها وثقت بك، ولأنها قالت إنها "أكبار".

جرح "إيليا" قدمه على قطع زجاج وخزف مكسورة .

اثبت له الالم أنه لم يكن يحلم .

فقد كان كل شى حوله حقيقيا لأقصى درجة .

وصلوا إلى الساحة حيث – منذ متى؟ - اعتاد أن يلتقى بالناس ويساعدهم ليحلوا نزاعاتهم وبدت السماء كما لو كانت تبرق من السنة اللهب .

قال الصبى بإصرار: لا أريد أن تكون أمى ما أنظر إليه الأن. لقد كذبت عليها.

وحاول الصبى أن يحفظ قسمه ، ولم ير "إيليا" دمعة واحدة على وجهه.

قال "إيليا" لنفسه: ماذا أستطيع أن أفعل؟ كانت قدماه تنزفان ، وقرر التركيز على الألم ليدفع عن رأسه الشعور باليأس.

نظر إلى الجرح الذى سببه السيف الأشورى فى جسده، ولم يجده عميقا كما تخيل.

جلس والصبى فى نفس البقعة حيث أحاط به الأعداء فيها وأنقذه خائن.

لاحظ أن الناس توقفوا عن الجرى، وساروا ببطء من مكان لآخر ، بين الدخان والأطلال والغبار، كما لو كانوا

الموتى الأحياء . وبدوا مثل أرواح طردت من السماء، وحكم عليها أن تهيم فى الأرض إلى الأبد. ولا شئ له معنى.

ورغم ذلك حاول البعض التعامل مع الموقف، وحاولوا تلبية صيحات النسوة، والأوامر المضطربة للجنود الناجين من المذبحة.

لكنهم كانوا قلة ، ولم يحققوا نتائج تذكر.

ذات مرة قال كبير الكهنة: إن العالم ما هو إلا الحلم الجماعى للآلهة.

ماذا لو كان حق؟ هل يستطيع إيقاظ الآلهة من هذا الكابوس، ثم يجعلها تنام ثانية لتحلم حلما لطيفا؟!

فعندما كان "لإيليا" رؤى ليلية، دائما كان يستيقظ ثم ينام من جديد، فلماذا لا يحدث نفس الشئ مع خالقى الكون؟

تعثر "إيليا" فى أجساد الموتى. وقال لنفسه: هم الآن غير منشغلين بضرورة دفع الضرائب، ولا بمعسكرات الأشوريين فى الوادى، ولا بالشعائر الدينية أو بوجود نبى هائم، ربما تحدث إليهم ذات يوم.

لا أستطيع البقاء هنا إلى الأبد، فكل ما تركته لى هو هذا الصبى، وسأكون جديرا بالاعتناء به حتى ولو كان هذا آخر شئ أفعله على سطح الأرض.

وبصعوبة شديدة وقف وأمسك يد الصبى، وسارا.

كان الناس يسلبون المتاجر والخيام التى تحطمت. ولأول مرة حاول التعامل مع ما يحدث، فطلب منهم أن يكفوا عما يقترفونه.

لكن الناس دفعوه جانبان وقالوا : نحن نأكل بقايا ما بدده الحاكم. ابتعد عن طريقنا. ولم يكن لدى "إيليا" القوة اللازمة لمناقشتهم فقاد الصبى إلى خارج المدينة وسارا عبر الوادى، حيث لا أمل فى ظهور الملائكة بسيوفها النارية.

قال "إيليا" : القمر بدر.

فبعيدا عن الغبار والدخان استطاع رؤية الليل وقد أضاءه القمر. وقبل ساعات عندما حاول مغادرة المدينة إلى أورشليم، كان قادرا على رؤية طريقه بدون صعوبة، لقيام المعسكرات الآشورية بنفس دور القمر.

تعثر الصبى فى جسد وصرخ . كان الجسد لكبير الكهنة، وقد قطعت يداه ورجلاه، لكنه كان ما زال حيا. كانت عيناه معلقتين بقمم الجبل الخامس.

قال كبير الكهنة بصوت هادئ وواهن: كما ترى . لقد كسبت الآلهة الفينيقية المعركة المقدسة . وكان الدم ينبثق من فمه.

قال "إيليا" : دعنى أنهى آلامك.

قال كبير الكهنة: لا أهمية للألم، مقارنة بنشوة أننى أديت واجبى.

تساءل "إيليا" دهشا: أكان واجبك تدمير مدينة الناس الصالحين؟

قال كبير الكهنة : المدينة لم تمت، فقط مات سكانها وما يحملونه من أفكار.

وذات يوم سيأتى اخرون إلـــى "أكبــار"، يشــربون مياهها. والأحجار التى تركها أصحابها. سيأتى كهنة اخـــرون لينظفوها ويعتنوا بها.

اتركنى الان، سينتهى ألمى قريبا بينما يأسك سـيلازمك طوال حياتك.

كان الجسد المشوه يتنفس بصعوبة ، عندما تركه "إيليا" ورحل.

عند هذه اللحظة ، أقبلت جماعـــة – رجـال ونسـاء وأطفال – تجرى باتجاه "إيليا"، وأحاطت به. صرخـــوا: أنـت المسئول . لقد جلبت العار على وطنك واللعنة على مدينتنا .

قال "إيليا" : ربما تشهد الآلهة على هذا! وربما تعـرف من الذى يجب توجيه اللوم إليه. دفعه الناس، وهزوه من كتفيـه – انسل الصبى من يديه واختفى.

لكمه البعض فى وجهه وصدره وظهره . ورغم ذلـك كان الصبى هو كل ما فكر فيه، لأنه لم يســتطع إبقــاءه إلـى جانبه.

لم يستمر الضرب لفترة طويلة ، ربما لأن المعتديـــن أنفسهم ضجروا من العنف الشديد. وسقط "إيليا" على الأرض.

قال شخص ما: ارحل عن هذا المكان. لقد قابلت حبنـا بالكراهية.

انسحبت المجموعة. ولم يكن لدى "إيليا" ما يكفي مــن القوة ليقف على قدميه وعندما آفاق وأدرك ما لحـق بـه مـن عار، قرر ألا يظل نفس الإنسان.

لم يكن لديه حب، كره ، أو إيمان.

* * *

استيقظ على شخص ما يلمس وجهه. والوقت ما زال ليلا لكن القمر غاب عن السماء.

قال الصبي: لقد وعدت أمي أنني سأعتني بك، لكنني لم أعرف ماذا أفعل.

قال "إيليا": عد إلى المدينة . الناس هناك طيبون ، وبالتأكيد سيستضيفك شخص ما.

قال الصبي: أنت مصاب. يجب أن أظل إلى جوارك. فربما يأتي ملاك ويخبرني بما أفعله .

صاح "إيليا": أنت جاهل ، ولا تعرف شيئا عما يحدث. لن تأتي ملائكة بعد الآن، لأننا مجرد بشر عاديين، وكل مخلوق ضعيف عندما يواجه الألم.

ولهذا عندما تقع كارثة، دع الناس يناضلون لإنقاذ أنفسهم.

وأخذ "إيليا" شهيقا عميقا، محاولا تهدئة نفسه، فلم يعد ثمة طائل من استمرار الجدل.. وسأل الصبي: كيف اهتديت للطريق إلى هنا؟

قال الصبي: لم أرحل أبدا.

قال "إيليا" : إذن - رأيت ما لحق بي من عار. رأيت أنه لم يتبق لي ما أفعله في "أكبار".

قال الصبي : لقد أخبرتني أن كل معاركنا في الحياة تعلمنا شيئا ما، حتى تلك المعارك التي تخسرها.

تذكر "إيليا" سيرهم حتى البئر، صباح أمس. وبدا الأمر كما لو أن سنينا قد مرت منذ ذلك الوقت. وشعر برغبة ملحة فى أن يخبره بأن هذه الكلمات الجميلة لا تعنى شيئا عندما يواجه المرء الألم، ولكنه قرر ألا يضايق الصبى.

سأله "إيليا": كيف نجوت من النار؟

خفض الصبى رأسه وقال: لم أكن قد نمت. قررت أن أظل مستيقظا طوال الليل، لأرى هل ستلتقى وأمى فى حجرتها. عندئذ رأيت أول الجنود وهو قادم إلينا. نهض "إيليا" وسار. كان يبحث عن الحجر الموجود أمام الجبل الخامس حيث جلس والمرأة يشاهدان الغروب.

همس لنفسه: يجب أن أرحل. إذا بقيت سازداد يأسا.

لكن قوة ما سحبته فى هذا الاتجاه. وعندما وصل هناك بكى بمرارة مثل مدينة "أكبار"، وكان الحجر موجودا يشير إلى المكان، وهو الوحيد فى هذا الوادى الذى يستشعر قيمته، ولن يمتدحه السكان الجدد أو يتألق بوجود زوجين اكتشفا معنى الحب.

احتضن "إيليا" الصبى، ونام ثانية.

٢٣

"أنا جائع وظمآن" قال الصبى لإيليا بعد استيقاظه مباشرة.

قال "إيليا": تستطيع الذهاب إلى منزل أحد الرعاة الذين يعيشون بالجوار. فلقد كانوا محظوظين ولم يصبهم مكروه لأنهم لا يعيشون فى "أكبار".

قال الصبى: نحتاج أن نعيد بناء أكبار. أمى قالت إنها "أكبار".

قال "إيليا": أية مدينة ؟ لم يعد هنا قصر، سوق، جدران. وشعب المدينة الطيب تحول إلى لصوص، وجنودها اليافعون ذبحوا.

وكذلك لن تعود الملائكة ، رغم أن هذا الأمر أصبح أقل مشكلاته أهمية.

"هل تظن أن ما حدث أمس من دمار ومعاناة وموت له معنى؟ وهل تظن أنه كان ضروريا أن تدمر حياة الاف لتعليم شخص ما .. شيئا ما؟"

.. سأله الصبى وهو ينظر إليه كمن يحاول تنبيهه.

قال إيليا: دعك من كل ما قلته لك. سنبحث الآن عن راع.

قال الصبى - بإصرار - : وسنعيد بناء المدينة.

لم يرد "إيليا". وأدرك أنه لن يستطيع - بعد الآن - استخدام سلطته على الناس، هؤلاء الذين اتهموه بأنه جلب اللعنة معه. فالحاكم هرب، والقائد مات، وعما قريب قد تسقط صيدا وتاير تحت سطوة الاحتلال الأجنبى.

... ربما تكون المرأة على حق، فالألهة دائمة التغير. وفى هذا الوقت ربما يكون "الله" هو من رحل.

سأله الصبى ثانية : متى سنعود إلى هنا؟

أمسكه "إيليا" من كتفيه ، وهزه بعنف، وقال له:

انظر وراءك ! أنت لست مجرد ملاك أعمى بل صبى تعمد التجسس على أفعال أمه. ماذا رأيت؟ هل لاحظت أعمدة الدخان المتصاعدة؟ هل تعرف ما الذى يعنيه هذا؟

صرخ الصبى: أنت تؤلمنى! أريد الرحيل عن هنا، أريد الرحيل.

توقف "إيليا"، وشعر بالارتباك. فهو لم يتصرف قط بهذه الطريقة.

.. أفلت الصبى منه وجرى نحو المدينة.

لحق به "إيليا"، وسجد عند قدميه وقال: سامحنى، لم أع ما فعلته وكان الصبى ينشج، لكن بلا دمعة واحدة على خديه.

جلس "إيليا" جواره منتظرا أن يستعيد هدوءه.

قال "إيليا" له: لا ترحل. لقد وعدت أمك وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، أننا سنظل معا حتى تتمكن من الاعتماد على نفسك.

قال الصبي: وكذلك أقسمت بأن المدينة سالمة. وقالت لك: ...

قال "إيليا": لا حاجة لتكرار ما قالته. أنا مشوش وتائه في ذنبي.

امنحني الوقت لأجد نفسي، فلم أقصد إيذاءك.

عانقه الصبي، دون أن تذرف عيناه دمعة واحدة.

* * *

وصل "إيليا" إلى منزل في منتصف الوادي. وكانت ثمة امرأة تجلس عند الباب، وطفلان يلعبان أمامها. وكان ثمة قطيع بالقرب منهم، مما يعني أن الراعي لم يرحل إلى الجبال هذا الصباح.

جفلت المرأة، وتابعت الرجل والصبي وهما قادمان نحوها. وودت لو تستطيع إبعادهما في الحال، لكن العادات - والآلهة - تلزمها باحترام قانون الضيافة الكوني. فإذا لم تستضفهما الآن، قد يواجه طفلاها نفس المصير. قالت المرأة: لا نقود معي. لكنني أستطيع منحكما قليلا من الماء وشيئا تأكلانه. جلسا في شرفة صغيرة مسقوفة بالقش، وأحضرت لهما فواكه جافة وإناء ماء. أكلا في صمت ، مجربين ، لأول مرة منذ أحداث مساء أمس، شيئا من الاعتياد الذي اتسمت به حياتهما اليومية.

واختبأ الطفلان داخل المنزل لخوفهما من ظهور الغريبين.

وعندما انتهيا من تناول طعامهما، سأل "إيليا" عن الراعى.

قالت المرأة : سيحضر عما قريب. فهذا الصباح سمعنا جلبة شديدة، وجاءنا شخص ما، وأخبرنا أن "أكبار" قد دمرت، فذهب ليرى ما حدث.

نادى الأطفال عليها، فدخلت إليهما.

قال "إيليا" لنفسه :لا فائدة من محاولة إقناع الصبى. فهو لن يتركنى لحالى حتى أنفذ له كل ما يطلبه. يجب أن أظهر له كم هذا مستحيل ، وفى هذه الحالة فقط يمكن استمالته واقناعه.

كان للطعام والشراب فعل السحر فى "إيليا" ، فاستعاد انتباهه وشعوره بأنه جزء من هذا العالم. تدفقت أفكاره بسرعة مذهلة تبحث عن الحلول، لا عن الإجابات.

* * *

بعد فترة عاد الراعى العجوز. تأمل الرجل والصبى بخوف لاهتمامه بأمر عائلته. لكنه سرعان ما أدرك ما كان يحدث، وقال: لابد أنكما لاجئان من "أكبار".

فأنا عائد لتوى من هناك.

ساله الصبى: وماذا يحدث هناك؟

قال الراعى : المدينة دمرت، والحاكم هرب . لقد أصابت الآلهة العالم باضطراب.

قال "إيليا" : لقد فقدنا كل شئ. ونطلب منك أن تستضيفنا.

قال الراعى: أظن زوجتى استضافتكما وأطعمتكما. والآن يجب أن ترحلا لتواجها مصيركما المحتوم.

قال "إيليا" : لا أعرف كيف أتعامل مع الصبى. أنا فى حاجة ماسة للمساعدة.

قال الراعى: بالطبع أنت تعرف. فهو صغير ويبدو ذكيا ونشيطا. وأنت لديك خبرة رجل عرف الانتصارات والهزائم فى حياته. وهذه التوليفة مثالية لأنها ستساعدك فى العثور على الحكمة. ونظر الرجل إلى الجرح فى ذراع "إيليا"، وقال إنه ليس جرحا خطيرا. ودخل المنزل ثم عاد ببعض الأعشاب وقطعة قماش. وعاونه الصبى فى وضع الضمادة على جرح "إيليا". وعندما قال الراعى إنه يستطيع القيام بهذا العمل بمفرده، قال الصبى إنه وعد أمه برعاية هذا الرجل. ضحك الراعى وقال: ابنك رجل يصون وعده.

قال الصبى: لست ابنه. وهو كذلك رجل يصون وعوده، فهو سيعيد بناء المدينة لأنه يجب أن يعيد أمى للحياة كما فعل معى.

فجأة – أدرك "إيليا" سر اهتمام الصبى بالمدينة، لكنه قبل أن يفعل أى شيء نادى الراعى زوجته التى خرجت من المنزل فى هذه اللحظة، وقال لها: من الأفضل ان نبدأ بإعادة بناء المدينة من الآن، سوف يستغرق هذا وقتا طويلا حتى يعود كل شئ إلى حاله.

قال "إيليا" : لن أعود قط.

قال الراعى : تبدو مثل شاب حكيم، وتســتطيع إدراك أشياء كثيرة أعجز أنا عن إدراكها . لكن الطبيعة علمتنى شــيئا لن أنساه أبدا، على الرجل الذى يعتمد على الطقس والفصــول – مثلما يفعل الراعى – أن يحاول النجاة عند مواجهــة مصــيره المحتوم . فهو يعتنى بقطيعه ، ويتعامل مع كل حيوان كما لــو أن لا وجود لسواه، ويحاول مساعدة الأمهات وصغارهـــا، ولا يبتعد عن المكان الذى تستطيع الشرب منه. ومن حين لآخر قـد يموت أحد الحملان، التى منحها الكثير من اهتمامه فى حادثـة.. وقد يكون ذلك بسبب ثعبان، حيوان مفترس أو حتــى السـقوط من فوق جرف صخرى. ومما لا شك فيه أن المصير المحتــوم لا بد يقع.

نظر "إيليا" تجاه "أكبار"، وتذكر محادثته مــع المــلاك والتى انتهت بأن المصير المحتوم لابد يقع.

قال الراعى: تحتاج للنظام والصبر كى تتغلب عليه.

قال "إيليا": والأمل. فعندما يصبح لا وجــود لــه، قــد يهدر المرء طاقته فى قتال المستحيل.

قال الراعى: المسألة ليست الأمل فى المســتقبل، بــل إعادة خلق ماضيك الخاص.

ولم يعد الراعى فى عجلة من أمره، فقد امتـــلأ قلبــه بالشفقة على اللاجئين اللذين يقفان أمامه. ولن تكلفه مســاعدتهما شيئا ، خاصة وقد نجا وأسرته من المأساة ويجب أن يشــكروا الآلهة على ذلك.

بالإضافة إلى أنه سمع عن النبي الإسرائيلي الذى تسلق الجبل الخامس دون أن تحرقه نيران السماء، وكل شئ يؤكد أنه الرجل الواقف أمامه.

قال الراعى: تستطيع البقاء ليوم واحد إذا رغبت.

قال "إيليا" : لم أفهم ما قلته منذ قليل عن إعادة خلق الماضى الخاص.

قال الراعى: مر على كثير من الناس وهم فى طريقهم إلى صيدا وتاير. واشتكى بعضهم من الإخفاق فى تحقيق شئ يذكر فى "أكبار"، يعيشون فى خوف، بلا ثقة فى أنفسهم تمكنهم من المجازفة.

وعلى الجانب الآخر، مر ببابى ناس فى غاية الحماس. تكسبوا فى كل لحظة من وجودهم فى "أكبار"، وبذلوا مجهودا كبيرا ليدخروا الأموال اللازمة لرحلتهم هذه. بالنسبة لهؤلاء الناس، الحياة انتصار دائم، حتما سيحققونه.

وعاد هؤلاء الناس أيضا، لكن بحكايات رائعة. لقد حققوا كل شئ رغبوا فيه لأنهم لم تعوقهم إحباطات الماضى.

* * *

مست كلمات الراعى قلب "إيليا".

وأكمل الراعى: ليس صعبا إعادة بناء حياة ما، تماما مثلما ليس من المستحيل إعادة أكبار إلى الوجود من وسط كل هذا الحطام. يكفى الانتباه إلى أننا نستمر بنفس القوة التى كانت لدينا فى الماضى. ويجب استخدام هذا لصالحنا.

وحدق الرجل فى عينى "إيليا" وقال : فإذا كان لديك ماض لا يرضيك ، انسه الآن، لقد مضى. وتخيل قصة جديدة عن حياتك، وآمن بها.

ركز فقط على هذه اللحظات التى حققت فيها ما رغبت، وستساعدك هذه القوة على تحقيق ما ترغب.

قال "إيليا" لنفسه: كانت هناك لحظة رغبت فيها أن أصبح نجارا، وفيما بعد رغبت أن أكون نبيا بعث لإنقاذ إسرائيل. وهبطت الملائكة من السماء، وتحدث الله إلى حتى ادركت أنه ليس عادلا، وأن دوافعه دائما تفوق قدرتى على الإدراك.

نادى الراعى زوجته، وقال لها إنه لن يرحل، فلقد وصل توا من أكبار سائرا، ولا طاقة عنده ليمشى أكثر.

قال "إيليا": أشكرك لاستضافتنا.

قال الراعى: ليس ثمة ما يضجر فى إيوائك لليلة واحدة.

قاطع الصبى المحادثة وقال: نريد العودة إلى "أكبار".

قال الراعى: انتظر للصباح. فالمدينة ينهبها سكانها ولا مكان للنوم بها.

نظر الصبى إلى الأرض، وعض شفته محاولا منع الدموع.

وقادهما الراعى إلى داخل المنزل، وهدأ من روع زوجته وطفليه، وأمضى بقية اليوم يتحدث عن الطقس ليلهيهم.

٢٤

في اليوم التالى استيقظ مبكرا، وتناولوا الطعام الذى أعدته زوجة الراعى، ثم خرجوا إلى باب البيت.

قال "إيليا" لينعم الله عليك بعمر مديد، وبقطيع يكبر ويزيد. لقد أكلت ما احتاجه جسدى، وتعلمت روحى أنها ما زالت تجهل الكثير. ليحفظ لك الرب ما فعلته لأجلنا، ويحمى ولديك أن يصبحا غريبين فى أرض غريبة.

قال الراعي بفظاظة: لا أعرف إلى أى رب تتوجه، هناك آلهة كثيرة تعيش فى الجبل الخامس. لكنه سرعان ما غير نبرة صوته وقال: تذكر ما فعلته من أشياء صالحة، ستمنحك الشجاعة.

قال "إيليا": لم أفعل سوى القليل، وجميعها لا علاقة لها بقدراتى.

قال الراعى: إذن حان الوقت لتفعل المزيد.

قال "إيليا" : ربما كان فى استطاعتى أن أمنع الغزو.

ضحك الراعى، وقال: حتى لو كنت حاكم "أكبار"، لم تكن لتستطيع أن تمنع المصير المحتوم.

قال "إيليا": ربما كان على حاكم "أكبار" أن يباغت الأشوريين عند وصولهم إلى الوادى فى قوات صغيرة، أو كان عليه التفاوض من أجل السلام قبل نشوب الحرب .

قال الراعى: كل شئ كان حدوثه ممكنا ولم يحدث ، ستذروه الرياح بعيدا ولن يترك خلفه أثرا. فالحياة تصنع بما نأخذه من مواقف ، وهناك أشياء بعينها تجبرنا الآلهة أن نحيا فى وجودها. ودافعها لذلك غير مهم، وليس فى إمكاننا القيام بشئ لنتجنبها .

قال "إيليا": لماذا؟

قال الراعى: سل النبى الإسرائيلى الذى عاش فى "أكبار". فهو يبدو كما لو كان عنده إجابة لكل شئ.

اتجه الراعى إلى سياج الشرفة وقال: يجب أن آخذ قطيعى للرعى. فأمس لم أخرج به، وخرافى لا تطيق صبرا.

ولوح لهم قبل أن يرحل وقطيعه.

٢٥

سار الصبى و"إيليا" عبر الوادى.

قال الصبى: أنت تمشى ببطء، أنت خائف مما سيحدث لك.

إجابة "إيليا": لا أخاف سوى نفسى. لن يستطيعوا إيذائى لأن قلبى لم يعد موجودا.

قال الصبى: الإله الذى أعادنى من الموت للحياة ما زال موجودا، ويستطيع إعادة أمى كذلك، إذا ما فعلت نفس الشئ بالمدينة.

قال "إيليا" : إنس أمر هذا الإله. فهو بعيد ولن يقوم بالمعجزة التى نأملها منه.

كان الراعى العجوز على حق، فمن هذه اللحظة لا بد أن يعيد بناء ماضيه، وينسى ظنه بأنه نبى وسيحرر إسرائيل، لكنه فشل فى مهمته لإنقاذ مدينة واحدة.

منحه التفكير بهذه الطريقة شعورا بالانتعاش، فلأول مرة فى حياته يشعر أنه حر، ومهيأ للقيام بأى شئ يرغبه فى أى وقت يود.

حقا، لن يسمع أية ملائكة بعد الآن، لكنه في مقابل ذلك أصبح حرا في العودة إلى إسرائيل، والعمل كنجار، والسفر إلى اليونان لتعلم أفكار الفلاسفة، أو الإبحار مع البحارة الفينيقيين إلى أراضي ما وراء البحار.

بداية ، لابد أن يثأر لنفسه. فلقد كرس سنوات شبابه لإله غير مبال، يأمر فقط، ودائما يفعل أشياء بأسلوبه الخاص. وقد تعلم "إيليا" تقبل كل قراراته واحترام كل تدابيره. لكن إخلاصه هذا كوفئ بالطرد، وتم تجاهل سنوات عمره، وما بذله من جهود في عبادة هذا الإله، وكانت النتيجة موت المرأة التي لم يحب غيرها أبدا.

قال "إيليا" بلغته القومية ، حتى لا يفهم الصبي كلامه: "لك قوة العالم والنجوم، وتستطيع تدمير مدينة، بلد ، كما ندمر الحشرات. فأرسل، إذن، النار من السماء وأنه حياتي، لأنك إذا لم تفعل ذلك فسأكون ضد كل شئ من صنيعك".

بدت "أكبار" من بعيد. فأمسك الصبي من يده وأطبق عليها بإحكام وقال:

من هذه اللحظة وحتى نعبر بوابات المدينة، سأسير بعيني مغلقتين، ويجب أن ترشدني. وإذا مت في الطريق، افعل ما طلبته مني، أعد بناء "أكبار" حتى لو تطلب ذلك أن تنتظر حتى تصل إلى مرحلة الشباب وتتعلم قطع الأشجار واستخدام الأحجار.

لم يرد الصبي. أغمض "إيليا" عينيه. وترك نفسه ليقوده الصبي. وسمع هبوب الرياح ووقع خطاه على الأرض.

تذكر "موسى" الذى بعد أن حرر الشعب المختار وقادهم عبر الصحراء مواجها صعوبات لا حصر لها، حرم الرب عليه أن يدخل "كنعان" وعندها قال موسى:

"وتضرعت إلى الرب فى ذلك الوقت قائلا. دعنى اعبر وأرى الأرض الجيدة التى فى عبر الأردن هذا الجبل الجيد ولبنان ، لكن الرب غضب على بسببكم ولم يسمع لى بل قال لى الرب" كفاك. لا تعد تكلمنى أيضا فى هذا الأمر. اصعد إلى رأس الفسجة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك لكن لا تعبر هذا الأردن".

وهكذا كافأ الرب حماسة موسى وإتمامه للمهمة، بعدم السماح له بأن يطأ الأرض الموعودة. فماذا كان سيحدث لو عصى موسى؟

وتوجه "إيليا" بأفكاره إلى السماء - ثانية - وقال:

"يا إلهى، لم تكن هذه المعركة بين الآشوريين والفينيقيين، بل كانت بينك وبينى. ولم تطلعنى على حربنا هذه، وكما هو الحال منذ الأزل، انتصرت ونفذت مشيئتك . لقد دمرت المرأة التى أحببتها والمدينة التى آوتنى عندما كنت بعيدا عن وطنى.

وكان دوى الرياح يتزايد فى أذنى "إيليا" فازداد خوفه، لكنه استمر فى مناجاته: ولن أستطيع إعادة المرأة للحياة، لكننى أستطيع تغيير المصير الذى فرضه هذا الدمار، فاقتلنى الان، لأنك إذا سمحت لى بالوصول إلى أبواب المدينة؛ سأعيد بناء هذه المدينة التى أردت محوها من فوق وجه الأرض.

وسأعمل ضد مشيئتك.

وصمت "إيليا" بعد أن أفرغ ذهنه ولم يعد في وسعه سوى انتظار الموت.

ولوقت طويل لم يركز على شئ أكثر من وقع قدميه على الرمال، فلم يكن يرغب في سماع أصوات الملائكة أو تهديدات السماء.

كان قلبه قد تحرر، ولم يعد يخشى ما قد يحل به. وفى أعماق روحه ثمة قلق يتزايد كما لو كان قد نسي شيئا ذا أهمية.

بعد وقت طويل توقف الصبي، وضغط على ذراع "إيليا" وقال: لقد وصلنا. فتح "إيليا" عينيه، ولم تكن نار السماء قد سقطت عليه، فرأى أمامه أطلال الأسوار المحيطة "بأكبار".

٢٦

تأمل "إيليا" الصبي الذي كان قابضا على يده كما لو كان يخشى فراره. هل أحبه؟

لا يعرف شيئا عن هذا. لكن مثل هذه الأشياء يمكن تأجيلها ، فلديه مهمة يجب عليه القيام بها. المهمة الأولى التي لم يفرضها الرب عليه.

ومن المكان حيث وقفاء كان يستطيع أن يشم رائحة الحريق.

وكانت الطيور آكلة الجيف تحلق فوق الرؤوس ، في انتظار اللحظة المواتية للهجوم على جثث الحراس الملقاة متعفنة في الشمس. اقترب "إيليا" من جثث أحد الجنود والتقط السيف من غمده. ففي الاضطراب الذي ساد الليلة السابقة، نسي الآشوريون أن يجمعوا الأسلحة ويحملوها خارج المدينة.

سأله الصبي: لماذا تريد هذا السيف؟

أجابه "إيليا" : لأدافع عن نفسي.

قال الصبي: لم يعد للآشوريين وجود بعد الآن.

قال "إيليا" : لا يهم. فمن الأفضل أن أحمل سيفا معـــى، يجب أن نكون متأهبين. وارتعشت نبرة صوته. فمن المســتحيل معرفة ما قد يحدث منذ اللحظة التى عبر فيها الآشوريون مـــن الجدار الذى تحطم نصفه. ورغم ذلك كان مستعدا لقتـــل مـــن تسول له نفسه أن يقهره.

قال للصبى: مثل هذه المدينة، تحطمـــت أنـــا أيضـــا. لكننى – مثل المدينة – لم أنه مهمتى بعد.

ابتسم الصبى وقال: تتحدث بالطريقة التى اعتدتها.

قال "إيليا" : لا تجعل الكلمات تخدعك. فيما مضى كان هدفى إبعاد ايزابيل عن العرش وإعادة إسرائيل إلـــى حظـــيرة الرب . والان يجب أن ننسى ما نسينا، مهمتى هى تنفيـــذ مـــا طلبته منى.

نظر إليه الصبى بحذر وقال: بدون الرب لـــن تعـــود أمي من الموت.

مسح "إيليا" شعر الصبى بيده، وقال : فقط – جسد أمك هو الذى تلاشى لكنها ما زالت بيننا، وكما أخبرتنا أصبحـــت "أكبار". ويجب أن نساعدها لتستعيد جمالها.

* * *

أصبحت المدينة شبه مهجورة . فقـــط كـــان العجـــائز والنسوة والأطفال يهيمون بلا هدف فى شوارع المدينـــة، فـــى تكرار لمشهد شهدوه ليلة الغزو.

وبدوا غير متأكدين مما سيفعلونه بعد ذلك.

وكلما مر "إيليا" على شخص ما، لاحظ الصبي أنه يقبض على مقبض سيفه. أما الناس فكانوا مختلفين في ردود أفعالهم، غالبيتهم تعرفوا عليه.

وكان البعض يومئ له، لكن دون أن يوجهوا له كلمة واحدة، ولو حتى كلمة تدل على الكراهية.

قال "إيليا" لنفسه: لقد فقدوا حتى الشعور بالغضب. ونظر إلى قمة الجبل الخامس حيث تغطي السحب اللانهائية ذروته. وعندئذ استعاد كلمات الرب:

"وألقي جثتكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسي. وأصير مدنكم خربة وأوحش الأرض. والباقون منكم ألقي الجبانة في قلوبهم ويهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد".

٢٧

"تمجد اسمك يا إلهى، لما قدرت. لقد حفظت وعدك. وها هم الموتى الأحياء ما زالوا يسعون فى الأرض. واختيرت " أكبار" لتأويهم".

استمر "إيليا" والصبى فى طريقهما إلى الساحة الرئيسية، وهناك جلسا يستريحا على قطعة حجر، بينما يحصون ما يحيط بهم.

بدا الدمار أشد مما ظن، فلقد انهارت أسقف معظم المنازل، وغطت القذارة والحشرات كل شئ.

قال "إيليا" يجب إزالة جثث الموتى وإلا سينتشر الطاعون فى المدينة .

وظل الولد مطرقا ينظر إلى الأرض.

قال "إيليا": ارفع رأسك. هناك الكثير يجب أن تقوم به، حتى تشعر أمك بالقناعة والاطمئنان.

لكن الولد لم يطعه. لقد أدرك أنه في مكان - ما - بين هذه الأطلال يوجد جسد أمه الذى جاء به إلى الحياة. وأصبح هذا الجسد فى حالة مشابهة لكل الجثث المنتشرة فى المدينة.

لم يصر "إيليا" على طلبه. وقف ثم حمل جثة على كتفيه ووضعها فى منتصف الساحة. ولم يستطع أن يتذكر القواعد التى فرضها الله عند دفن الموتى، فكل ما كان يهدف إليه هو منع الطاعون من اجتياح المدينة، ولهذا كان حرق هذه الجثة هو الحل الوحيد.

عمل لبقية الصباح، ولم يتحرك الصبى من مكانه أو يرفع عينيه للحظة، لكنه حافظ على وعده لأمه، ولم تسقط دمعة واحدة على أرض "أكبار".

توقفت امرأة، ووقفت لبعض الوقت تراقب ما يبذله "إيليا" من جهد .

وقالت: "الرجل الذى كان يحل مشاكل الأحياء، الآن يرص أجساد الموتى".

سألها "إيليا": أين رجال مدينة "أكبار"؟

قالت المرأة: رحلوا، وأخذوا معهم القليل الذى تبقى . لم يعد يوجد ما يستحق البقاء. أما الذين لم يغادروا المدينة فهم غير القادرين على الرحيل، العجائز والأرامل والأيتام.

قال "إيليا": لكنهم عاشوا هنا منذ أجيال. ولا يجب أن يستسلموا بهذه البساطة.

قالت المرأة : حاول أن تشرح ذلك لشخص ما فقد كل شئ.

قال "إيليا": ساعديني. وحمل جثة أخرى على كتفيه ليضعها على كومة الجثث، وأردف: سوف نحرقها، حتى لا يزورنا إله الطاعون، فرائحة اللحم المحروق ترعبه.

قالت المرأة: دع إله الطاعون يأتي، لعله يحصد أرواحنا سريعا.

استمر "إيليا" في أداء مهمته. جلست المرأة جوار الصبي تراقب ما كان "إيليا" يفعله. وبعد فترة اقتربت منه وسألته: لماذا ترغب في حماية هذه المدينة البائسة؟

قال "إيليا" إذا توقفت عما أقوم به ، سيعني هذا أنني غير قادر على إنجاز ما أرغب. كان الراعي العجوز على حق. فالحل الوحيد هو نسيان ماض من عدم اليقين، وابتداع تاريخ جديد. فالنبي السابق مات مع المرأة في النيران التي اشتعلت بمنزلها، وهو الآن رجل بلا إيمان بالرب وتجتاحه الشكوك. لكنه ما زال حيا حتى بعد تحديه للجزاء الإلهي. وإذا رغب أن يكمل هذا الطريق؛ يجب أن يقوم بما اعتزمه.
اختارت المرأة أحد الجثث خفيفة الوزن وسحبتها من كعبيها إلى الكومة التي جمعها "إيليا" ، وقالت: ليس خوفا من إله الطاعون، ولا من أجل "أكبار"، فسرعان ما سيعود الآشوريون، بل من أجل هذا الصبي الجالس هناك برأس "منكس"، يجب أن يتعلم أن الحياة ما زالت أمامه.

قال "إيليا" شكرا لك.

قالت المرأة: لا تشكرني. في مكان ما بين هذا الحطام سنجد جثة ابني، كان في نفس عمر هذا الصبي تقريبا. ورفعت

ذراعها إلى وجهها وبكت بحرقة، فأخذها "إيليا" بين ذراعيه في لطف شديد وقال لها: الألم الذى نشعر به لن يزول أبدا، لكن العمل سيساعدنا على احتماله. ليس لدى المعاناة القوة لتجرح جسدا أصابه الإرهاق والضجر.

وأمضيا بقية اليوم فى أداء المهمة البشعة لجمع وتكويم أجساد الموتى، وأكثرهم من الشباب الذين ظنهم الآشوريون جزءا من جيش المدينة.

وكثيرا ما تعرف على أصدقاء بين هذه الجثث، لكنه لم يتوقف عن أداء مهمته.

* * *

بنهاية الظهيرة، شعرا بالإعياء، رغم أن العمل الذى انجز كان أقل من اللازم، ولم يساعدهما أى من سكان "أكبار".

اقتربا من الصبى، الذى رفع رأسه لأول مرة منذ جلس فى هذا المكان، وقال: أنا جائع.

قالت المرأة: سأذهب للبحث عن شئ ما صالح الأكل. هناك كثير من الطعام مخبأ بمنازل مختلفة فى "أكبار"، فقد كان الناس يستعدون لحصار طويل.

قال "إيليا" : أحضرى طعاما لى ولك، فنحن لنا سلطة على المدينة لما بذلناه من جهد. أما إذا كان الصبى يريد أن يأكل، فيجب أن يعتنى بنفسه.

فهمت المرأة، فقد كانت ستفعل نفس الشئ مع ابنها. ذهبت إلى المكان الذى يقع به منزلها، وتقريبا كان اللصوص قد عبثوا بكل شئ وهم يبحثون عن الأشياء الثمينة. ووجدت

مجموعة من الأواني - من صناعة أفضل صانعي الزجاج في "أكبار" - قد تناثرت على الأرض. لكنها وجدت الفواكه والحبوب المجففة التي سبق أن اشترتها.

عادت إلى الساحة، واقتسمت الطعام مع "إيليا" - ولم ينطق الصبي بشيء.

بعدها اقترب رجل عجوز منهما وقال: رأيتكما تجمعان الجثث طوال اليوم.

أنتما تهدران وقتكما. ألا تعلمان أن الآشوريين سيعودون بعد احتلالهم صيدا وتاير؟ اتركا إله الطاعون يأتي إلى هنا ويفنيهم.

قال "إيليا" : لا نقوم بذلك لأجلهم أو لأجلنا. فهي تعمل لتعلم الصبي أنه لا يزال ثمة مستقبل . وأنا أعمل لأبين له أنه لم يعد ثمة ماض.

قال الرجل العجوز: إذن لم يعد النبي يمثل تهديدا للأميرة العظيمة.. يا لها من مفاجأة! ستحكم "إيزابيل" إسرائيل حتى نهاية عمرها، وسنظل نستضيف لاجئا إذا لم يكن الأشوريون كرماء.

لم يرد "إيليا". والاسم الذي أيقظ بداخله، ذات مرة، كل هذه الكراهية، الآن يبدو بعيدا غريبا.

قال الرجل العجوز - بإصرار - سيعاد بناء "أكبار" ، على أية حال. فالالهة تختار أماكن تشييد المدن، ولن تخذلها. لكننا نستطيع أن نترك هذا المجهود للأجيال القادمة.

أدار إيليا ظهره للرجل العجوز منهيا الحوار.

نام ثلاثتهم فى الهواء الطلق. احتضنت المرأة الصبى، ملاحظة أن معدته تهدر من شدة الجوع. فكرت أن تمنحه بعض الطعام، لكنها سرعان ما تخلت عن هذه الفكرة وقالت لنفسها: صحيح التعب يقلل الشعور بالألم، والصبى الذى يبدو أنه قد عانى كثيرا، يحتاج أن يشغل نفسه بشئ ما . ربما يدفعه الجوع للعمل.

٢٨

في اليوم التالي، استعاد "إيليا" والمرأة نشاطهما. وعاد إليهما الرجل العجوز الذي سبق أن جاءهما ليلة أمس.

قال الرجل العجوز: لا عمل لدي. واستطيع مساعدتكما. لكنني ضعيف جدا ولا استطيع أن أحمل الجثث.

قالا له: إذن اجمع قوالب الطوب وقطع الخشب الصغيرة، واكنس التراب.

وبدأ الرجل العجوز ينفذ ما طلباه منه.

* * *

عندما وصلت الشمس منتصف السماء، جلس "إيليا" على الأرض من الإعياء. كان يعرف أن ملاكه جواره ، ولا يستطيع أن يسمعه . فما فائدته ؟ لم يكن قادرا على مساءلتي عندما احتجت إليه. والآن لا أريد مشورته، كل ما أريده أن أعيد هذه المدينة إلى سابق عهدها، لأبين للرب أنني قادر على مواجهته، وعندئذ سأرحل إلى أي مكان أريده.

لم تكن إسرائيل بعيدة ، فهي على مسيرة سبعة أيام، ولا توجد أماكن صعبة في الطريق إليها. لكنه هناك مطلوب، بوصفه خائنا. قد يكون من الأفضل أن يذهب إلى دمشق، أو يجد عملا كـ "ناسخ" في مدينة يونانية.

شعر "إيليا" بشئ يلمسه . والتفت فرأى الصبى يحمل برطمانا صغيرا.

قال الصبى: وجدته في أحد المنازل.

كان البرطمان مملوءا بالماء، وشربه "إيليا" حتى آخر قطره، ثم قال للصبى: كل شيئا. لقد عملت وتستحق مكافأة.

ولأول مرة منذ ليلة الغزو ، ظهرت ابتسامة على شفتى الصبى، وجرى إلى المكان الذى تركت فيه المرأة الحبوب والفواكه.

عاد "إيليا" إلى عمله ، وكان يدخل المنازل المهدمة، مزيحا الأحجار، ملتقطا الأجساد ليحملها إلى الكومة وسط الساحة.

سقطت الضمادة التى وضعها الراعى على ذراعه ، ولم يكن ذلك مهما بالنسبة له، كان الرجل العجوز، الذى يجمع النفايات المتناثرة في الساحة، على حق، فقريبا سيعود الآشوريون ليجمعوا الفواكه التى لم يزرعوها.

كان "إيليا" يكد لأجل الغزاة ، السفاحين الذين اغتالوا المرأة الوحيدة التى أحبها في حياته. لكن الآشوريين يؤمنون بالخرافات، وسيعيدون بناء أكبار على أية حال. لأنه حسب المعتقدات القديمة، وزعت الآلهة المدن وفق نظام معين وفي

تناغم مع الوديان والحيوانات والأنهار والبحار. وفى كل مدينة جعلوا لأنفسهم مكانا مقدسا سريا ليرتاحوا فيه أثناء رحلاتهم الطويلة حول العالم. وعندما تدمر مدينة، ثمة تهديد دائم بأن السموات ستنطبق على الأرض.

تقول الإسطورة إن مكتشف مدينة "أكبار" كان يمر بها منذ مئات السنين، قادما من الشمال. وقرر أن ينام في مكان ما، وغرس حزمة من الخشب فى هذا المكان كعلامة تدله على الموضع الذى ترك به أشياءه.

وفى اليوم التالى لم يستطع أن ينزع حزمة الخشب هذه، وسرعان ما أدرك حكمة الكون، ووضع حجرا فى المكان الذى حدثت فيه المعجزة.

واكتشف كذلك نبعا بالقرب منه. وشيئا فشيئا بدأت القبائل تستقر حول الصخرة والبئر، وولدت "أكبار".

وذات مرة بين الحاكم "لإيليا" أنه حسب العادات الفينيقية، كل مدينة هى النقطة الثالثة والعنصر الذى يربط إرادة السماء بإرادة الأرض.

الكون يجعل البذور تحول نفسها إلى نبات، والتربة تسمح له بأن ينمو، والإنسان يحصده ويحمله إلى المدينة، حيث أحفاد الآلهة مكرسون لخدمتها قبل أن يحملوا إلى الجبال المقدسة.

ورغم أن "إيليا" لم يسافر كثيرا ، كان يعلم أن بلادا كثيرة فى العالم لديها أساطير مشابهة. وهكذا يخشى

الآشوريون أن يتركوا آلهة الجبل الخامس بلا طعـــام، دون أن تكون لديهم أدنى رغبة فى الإخلال بنظام الكون.

قال "إيليا" : لماذا أفكر فى مثل هذه الأشياء. إذا كـــانت هذه المعركة بين إرادتى وإرادة الله الذى تركنى وحيدا وســـط كل هذه المحن؟

عاوده نفس إحساس الأمس عندما تحدى الرب، أحـــس أنه ينسى شيئا مهما، ومهما حث ذاكرته فلن يستطيع استدعاءه.

٢٩

مر يوم آخر. وعند نهايته كانت معظم الجثث قد جمعت وسط الساحة. واقتربت امرأة ثانية منهم وقالت: لا طعام عندى.

أجابها "إيليا" : ولا نحن. فامس واليوم تقاسم ثلاثتنا طعام شخص واحد. فحاولى اكتشاف أين يوجد الطعام، ثم أخبرينى.

سألت المرأة: أين استطيع تعلم ذلك؟

قال "إيليا": اسألى الأطفال، فهم يعرفون كل شئ.

فمنذ أن قدم الصبى بعض الماء لإيليا، بدا وكانه استعاد جزءا من تذوقه للحياة . وكان "إيليا" قد طلب منه أن يساعد الرجل العجوز فى جمع البقايا والقاذورات، لكنه لم ينجح أن يجعله يعمل لفترة طويلة، وهو الآن يلعب مع بعض الصبية فى أحد أركان الساحة.

قال "إيليا" لنفسه: هذا أفضل. فعندما يصبح رجلا سيكون لديه متسع من الوقت ليكد ويعرق.

ولم يشعر "إيليا" بالندم لأنه جعل الصبى يقضى طوال الليل جائعا ، بحجة أنه يجب أن يعمل، وأنه إذا عامله كيتيم فقير، ضحية المحاربين الأشرار السفاحين، ما كان ليخرج من حالة الإحباط التى تملكته منذ دخولهم المدينة.

والآن خطط "إيليا" أن يترك الصبى لحاله أياما قليلة، حتى يجد إجاباته الخاصة على ما حدث.

قالت المرأة التى طلبت الطعام: كيف يستطيع الأطفال إدراك أى شئ؟

قال "إيليا" : اكتشفى الأمر بنفسك.

ورأها كل من المرأة والرجل العجوز، اللذين ساعدا "إيلية" تتحدث إلى الصبية الصغار وهم يلعبون فى الشارع. وبدا الأمر وكأنهم قالوا شيئا ما، فاستدارت وعلى وجهها ابتسامة ، اختفت عند أحد أركان الميدان.

تساءل الرجل العجوز: كيف اكتشفت أن الأطفال يعرفون؟

قال "إيليا" : لأننى كنت طفلا ذات يوم، وعرفت أن الأطفال بلا ماض. وتذكر ثانية حواره مع الراعى. فقد كانوا مرعوبين ليلة الغزو، أما الآن فهم لا يهتمون بذلك، وتحولت المدينة بالنسبة لهم إلى متنزه يستطيعون اللهو فيه دون أن يضايقهم أحد.

وبالصدفة قد يعثرون على طعام خزنه الناس لأيام الحصار. دائما يستطيع الأطفال أن يعلموا الكبار ثلاثة أشياء : السعادة بلا سبب، الانشغال بشئ ما ، معرفة كيف يطلبون بكل قوة ما يرغبون فيه.

وبسبب هذا الطفل، ولأجله، عدت إلى "أكبار".

* * *

في مساء هذا اليوم جاء مزيد من الرجال والنساء العجائز للمعاونة في جمع جثث الموتى. ووظف الأطفال في إخافة الطيور الجارحة ودفعها للطيران، وإحضار قطع الخشب والملابس.

وعندما حل المساء أشعل "إيليا" النار في كومة الجثث. وتأمل الناجون – في صمت – الدخان المتصاعد.

سقط "إيليا" من الإعياد بمجرد إتمام المهمة. وقبل النوم عاوده نفس الشعور الذي انتابه هذا الصباح، كما لو أن شيئا مهما كان يصارع يائسا ليتسلل إلى ذاكرته. لم يكن قد تعلم شيئا طوال المدة التي مكثها في "أكبار" سوى قصة قديمة، تلك القصة التي يبدو أنها تمنح معنى لكل ما حدث.

* * *

تقول القصة: "ذات مساء دخل رجل خيمة يعقوب، وتصارعا حتى الفجر. وعندما أدرك أنه لن يستطيع الانتصار عليه، قال: "دعني أذهب".

قال يعقوب: لن أدعك تذهب حتى تمنحني البركة.

عندئذ قال له الرجل: بوصفك أميرا، لك سلطة على الرب والرجال، ولأنك انتصرت، فماذا يكون اسمك؟ – قال له: يعقوب.

قال الرجل: لن تنادى بـ "يعقوب" بعد الآن، وإنما "إسرائيل".

٣٠

استيقظ "إيليا" جفلا، ونظر إلى السماء وهمس: هذه هى القصة المفقودة!

فمنذ زمن بعيد أقام يعقوب معسكرا، وأثناء الليل دخل شخص ما خيمته وتصارع معه حتى الفجر. وقبل يعقوب الصراع رغم إدراكه أن خصمه كان الله. وحتى الصباح لم يهزم، وتوقف الصراع عندما وافق الرب أن يمنحه البركة.

وانتقلت الحكاية من جيل إلى آخر، وهكذا لن تنسى أبدا.

"أحيانا تكون ثمة حاجة للصراع مع الرب".

فكل إنسان ، فى وقت ما، تدخل المأساة حياته، قد تكون: تدمير مدينة، موت ابن، اتهام بلا دليل، مرض يجعل المرء طريح الفراش للأبد.

فى مثل هذه اللحظة يتحدى الرب الإنسان ليواجهه، ويجيب على سؤاله:

"لماذا تتشبث سريعا بوجود قصير ومملوء بالمعاناة؟ وما جدوى صراعك فى الحياة؟"

والمرء الذى لا يعرف كيف يجيب على هذا السؤال، يتخلى عن نفسه - بينما الآخر الذى يرى معنى للوجود، يشعر أن الرب غير عادل، ولابد أن يتحدى مصيره.

وعند هذه اللحظة تنزل نار مختلفة من السماء . ليست تلك النار التى تقتل، بل ذلك النوع الذى يهدم الجدران القديمة، ويفضح القدرات الحقيقية لكل مخلوق.

ولا يسمح الجبناء لقلوبهم أن تتوهج بهذه النار، فكل ما يرغبونه إنما هو تغيير الوضع الحالى والعودة سريعا إلى ما كان، وهكذا يستطيعون المضى فى حياتهم والتفكير بطريقتهم المعتادة.

"دائما - يتسم الشجعان بالعناد والصلابة".

وفى السموات يبتسم الرب برضا، فهذه رغبته، أن يصبح كل شخص مسئولا عن حياته. ولهذا نجده قد منح أبناءه أعظم منحة على الإطلاق وهى:

القدرة على اختيار وتحديد أفعالهم.

فقط هؤلاء الرجال والنساء الذين تحمل قلوبهم اللهب المقدس، لديهم الشجاعة لمواجهته. ووحدهم يعلمون طريق العودة لاكتساب محبته لأنهم أدركوا أن المأساة ليست عقابا بل تحد.

تتبع "إيليا" فى ذهنه كل الخطوات التى خطاها. فعندما غادر دكان النجارة كان قد قبل مهمته بلا شك أو جدال.

ورغم أنها كانت أمرا واقعا ، وشعر أنها كذلك، لم تتح له فرصة أن يرى ما كان يحدث فى المسالك التى اختار ألا يسلكها لأنه خشى أن يفقد إيمانه ، وإخلاصه وإرادته . ظن أنه من الخطر أن تجرب مسلك عامة الناس، فقد يعتاد عليه ويجد متعة فيما رأى.

لم يفهم أنه كان مثل غيره، حتى ولو سمع أصوات الملائكة، وتلقى - من حين لآخر - أوامر من الرب. ونتيجة ليقينه بأنه عرف ما يريد، تصرف بنفس الطريقة مثل هؤلاء الذين لم يتخذوا قرارا مهما فى حياتهم. فر من الشك ، من الهزيمة، ومن لحظات العجز عن اتخاذ القرار. لكن الله كان كريما وقاده إلى هاوية المصير المحتوم، ليبين له أن الإنسان يجب أن يختار - وليس يتقبل - مصيره.

منذ سنوات كثيرة مضت، وفى ليلة مثل هذه ، لم يدع يعقوب الرب يرحل دون أن يمنحه البركة . وعندئذ سأله الرب: ما اسمك؟

والمغزى الرئيسى لهذا الموقف هو : يجب أن يكون لك اسم.

وعندما أجاب يعقوب، عمده الرب باسم "إسرائيل"

ورغم أن كلا منا لديه اسم منذ ميلاده، يجب عليه أن يتعلم تعميد حياته بكلمة يختارها لتمنح معنى لتلك الحياة.

.. .. .. قالت المرأة: أنا "أكبار".

كان تدمير المدينة وموت المرأة التى أحبها، ضرورة ليفهم "إيليا" أنه يجب أن يكون له اسم . ومنذ هذه اللحظة أطلق

على حياته هذا الاسم: الحرية.

* * *

وقف وتأمل الساحة أمامه. كان الدخان ما زال يتصاعد من رماد هؤلاء الذين فقدوا حياتهم . وعندما أشعل النار فى الجثث كان قد تحدى عادة قديمة من عادات المدينة، التى تأمر بدفن الميت حسب الشعائر المقدسة.

لقد صارع الرب والعادات باختياره وأشعل النار فى الجثث، دون أن يشعر بأية خطيئة لاختياره حلا جديدا لمشكلة جديدة.

رحمة الرب لا نهاية لها، وقسوته لا تطاق تجاه الذين افتقدوا الشجاعة والتحدى.

ثانية - جال بنظره فى الساحة، وكان بعض الناجين لم يناموا وظلت عيونهم محملقة فى ألسنة اللهب، كما لو أن النار تلتهم ذاكرتهم وماضيهم، ومائتى عام من السلام والسكينة فى "أكبار".

مضى زمن الخوف والأمل، والآن لم يتبق سوى إعادة البناء أو إعلان الهزيمة.

المذعن، الحكيم، العاشق، الحاج.. ثمة اختيارات كثيرة مثل النجوم فى السماء، لكن كل واحد منها يجب أن يمنح اسما لحياته.

نهض "إيليا" وصلى : تحديتك يا إلهى، ولست خجلانا. وبسبب هذا اكتشفت أننى على دربى أسير، لأن هذه هى رغبتى، وليست مفروضة على من قبل بواسطة أب أو أم أو عادات بلدى أو حتى بواسطتك.

الأمر يرجع لك يا إلهى، كى أعود فى هذه اللحظـــــة. وأتمنى أن أسبح باسمك و أنا فى كامل إرادتـى وليـــس لأننـــى جبان لم أعرف كيف أختار دربى.

ولكى تسر إلى برسالتك المهمة ، يجب أن أستمر فـــى هذه المعركة ضدك حتى تباركنى.

إعادة بناء "أكبار" ظنها "إيليا" تحديا للرب، و هى فـــى الحقيقة كانت مواجهة جديدة بينه وبين الرب.

٣١

صباح اليوم التالى، ظهرت المرأة التى سبق أن طلبت بعض الطعام، وكان بصحبتها عدد كبير من النساء، وقالت: عثرنا على بعض المؤونة المخزونة، ولأن كثيرين قتلوا وآخرين فروا مع الحاكم ، لدينا طعام يكفى لمدة عام .

قال "إيليا" ليتول العجائز مسئولية توزيع الطعام، فلديهم خبرة فى التنظيم.

قالت المرأة: فقد العجائز إرادة الحياة.

قال: اطلبى منهم أن يأتوا على أية حال.

كانت المرأة تتأهب للرحيل عندما استوقفها "إيليا" وسألها: هل تعرفين الكتابة باستخدام الحروف؟

أجابت : لا.

قال: لقد تعلمت وأستطيع تعليمك . فأنت بحاجة لهذه المهارة لتساعدينى فى حكم المدينة.

قالت: لكن الآشوريين سيعودون.

قال: عندما يعودون سيحتاجون عوننا للتعامل مع شئون المدينة.

قالت: لماذا تقوم بهذا العمل للعدو؟

قال: حتى يتسنى لكل منا أن يمنح حياته اسما. والعدو مجرد ذريعة لاختبار قوتنا.

* * *

وكما طلب "إيليا" جاء العجائز.

قال لهم: "أكبار" تحتاج عونكم. ولهذا لن تنعموا بتقدم عمركم، فنحن بحاجة إلى الشباب الذى سبق أن فقدتموه.

قال أحدهم : لا نعرف أين نجده. لقد تلاشى بين التجاعيد وخيبة الأمل.

قال "إيليا" : هذا غير حقيقى. لم تكن لديكم ضلالات قط. وهذا ما جعل شبابكم يخفى نفسه بعيدا. الآن حانت لحظة العثور عليه ثانية ، لأن لدينا حلما مشتركا. إعادة بناء "أكبار".

قال العجوز :كيف نستطيع تحقيق المستحيل؟

أجابه "إيليا" : بالحماس.

وجاهدت العيون التى خيم عليها الأسى والتخاذل ، لتلمع من جديد.

لم يعودوا نفس المواطنين عديمى النفع الذين اعتادوا حضور المحاكمات سعيا وراء شئ ما يتحدثون عنه بقية اليوم، الآن أمامهم مهمة جليلة، وهناك من يحتاجونهم.

قام أوفرهم صحة بنزع المواد الصالحة للاستخدام من المنازل المهدمة، للاستفادة منها فى إصلاح تلك المنازل التى ما زالت سليمة. وتعاون الأكبر سنا فى نشر رماد الجثث فى الحقول، وهكذا قد يتذكر الناس موتاهم عند الحصاد التالى.

وقام اخرون بجمع الحبوب التى انتثرت فى الشوارع، وصنعوا الخبز، وجلبوا المياه من البئر.

٣٢

بعد ليلتين ، جمع "إيليا" كل سكان "أكبار" فى الساحة التى أصبحت الان خالية من معظم البقايا . أشعلت المصابيح ، وقال لهم:

لا خيار أمامنا ، فإذا تركنا هذا العمل للأجانب ، نكون قد ضيعنا الفرصة الوحيدة التى قدمتها المأساة لنا وهى: إعادة بناء حيواتنا.

فرماد أجساد الموتى التى حرقناها منذ أيام مضت ، سيصبح النباتات التى ستزهر فى الربيع مجددا. والابن الذى فقد ليلة الغزو ، سيصبح كل الأطفال الذين يجرون بحرية عبر الشوارع المتهدمة، مستمتعين بدخول الأماكن المحرمة والمنازل التى لم يتعرفوا عليها أبدا.

.. حتى الآن - الأطفال فقط هم القادرون على تجاوز ما حدث، لأنهم بلا ماض ، واللحظة الراهنة هى كل ما يهمهم. ولهذا سنحاول التصرف كما يتصرفون.

تساءلت المرأة: أيستطيع الإنسان أن ينزع من قلبه ألم الفقد والخسارة؟

قال "إيليا" : لا. لكنه يستطيع أن يجد السعادة في شئ فاز به.

استدار "إيليا" وأشار إلى قمة الجبل الخامس المغطاة بالسحب دائما.

وكان تحطيم الجدران قد جعلها مرئية من الساحة.

أكمل "إيليا": أنا أؤمن بإله واحد، بينما تعتقدون أن الآلهة تسكن بين هذه السحب حول قمة الجبل الخامس. ولا أرغب في مناقشة ما إذا كان إلهي أقوى أو أكثر سلطة، ولن أتحدث عن الاختلافات بيننا، بل عن الأشياء المشتركة. لقد وحدت المأساة بيننا حول عاطفة واحدة: اليأس. كيف حدث هذا؟ لأننا ظننا أن كل شئ تمت الإجابة عليه وإقراره في أرواحنا، ولن نستطيع قبول أية تغيرات.

أنتم وأنا ننتمي إلى بلاد تجارية . لكننا نعرف كذلك كيف نتصرف مثل المحاربين.

والمحارب دائم الانتباه إلى الأشياء التي تستحق القتال في سبيلها.

وهو لا يدخل في صراع على أشياء لا تهمه . ولا يهدر وقته مطلقا في المشاحنات والاستفزاز.

والمحارب يتقبل الهزيمة. ولا يتعامل معها بلا مبالاة، لكنه لا يحاول تحويلها إلى انتصار. ألم الهزيمة يملأه بالمرارة، فيعانى بلا نواح، وتزيده الوحدة يأسا. وبعد أن يمر

كل هذا، يلعق جراحه ويبدأ من جديد. فالمحارب يعرف أن الحرب تتكون من معارك كثيرة، ولهذا يمضي في طريقه.

المآسي لا بد أن تحدث. ونستطيع اكتشاف السبب، ونلوم الآخرين، ونتخيل كم ستكون حياتنا مختلفة لو لم تحدث. لكن لا أهمية لكل ما سبق ، لأنه لا مفر من حدوث المأساة والمرور بها.

من الآن يجب أن نزيح الخوف الذى استيقظ داخلنا، ونبدأ إعادة البناء.

سيمنح كل واحد منكم نفسه اسما جديدا، وبداية جديدة من هذه اللحظة.

وسيكون هذا هو الاسم المقدس الذى سيحتوى بداخله كل ما حلمتم بالقتال من أجله. وبالنسبة لى، لقد اخترت "الحرية" اسما.

خيم الصمت على الساحة لبعض الوقت. عندئذ نهضت المرأة التى كانت أول من انضم لمعاونة "إيليا" ، وقالت: اسمى هو "إعادة المواجهة".

وقال رجل عجوز : اسمى "الحكمة".

وصاح ابن المرأة التى أحبها "إيليا" اسمى هو "حروف الهجاء".

انفجر الناس فى الضحك، فشعر الصبى بالخجل وجلس ثانية.

وصاح صبى آخر. كيف يدعو أى إنسان نفسه بـ "حروف الهجاء".

وكان فى استطاعة "إيليا" أن يتدخل لكنه رأى أنه من الأفضل أن يتعلم الصبى كيف يدافع عن نفسه.

قال الصبى: لأن هذا ما فعلته أمى، فكلما نظرت إلى الحروف أتذكرها.

وهذه المرة لم يضحك أحد. أعلن الأيتام والأرامل والعجائز أسماءهم وهويتهم الجديدة، واحدا بعد الاخر.

وعند انتهاء الاحتفال طلب "إيليا" من الجميع الذهاب ليناموا مبكرا، فمن الصباح يجب أن يعودوا إلى ما كانوا يقومون به.

أمسك يد الصبى واتجها إلى مكان فى الساحة علقت فيه بعض قطع الملابس على هيئة خيمة.

وبداية من هذه الليلة، بدأ يعلمه الكتابة البابلية.

٣٣

أيام وأسابيع، بعدها تغير وجه "أكبار". وتعلم الولد سريعا كيف يخط الحروف، وبدأ يبتدع كلمات ذات معنى، وحثه "إيليا" أن يكتب على ألواح الطين؛ قصة إعادة بناء المدينة.

وكانت الألواح الطينية توضع فى الأفران لتتحول إلى ألواح من السيراميك ، ثم تخزن بواسطة زوجين عجوزين.

وفى جلسات ما بعد الظهر، كان "إيليا" يطلب من العجائز أن يحكوا عما رأوه فى طفولتهم، وهكذا دون أكبر عدد ممكن من القصص العظيمة.

وبين لهم أن ذاكرة "أكبار" سوف تدون على مادة لا تدمرها النيران. ويوما ما سيعلم أطفالنا وأطفالهم أن الهزيمة لم تقبل ، وأن المصير المحتوم قهر. ويمكن أن يصبح هذا مثالا يحتذى لهم.

كل ليلة، بعد انتهائه من التدريس للصبى، كان "إيليا" يسير فى شوارع المدينة المهجورة حتى يصل إلى أول الطريق

المؤدية إلى أورشليم ، وهناك كان يفكر فى الرحيل، ثم يعـــود ثانية إلى المدينة.

كانت المهمة ثقيلة وتتطلب أن يركـــز علـــى اللحظـــة الراهنة. فسكان المدينة يعتمدون عليه لإعـــادة بنـــاء المدينـــة، وسبق أن خذلهم ذات مرة عندما فشل فى الحيلولـــة دون قتـــل القائد الآشورى ، وكان نجاحه سيجنبهم الحرب. لكـــن الـــرب دائما يمنح أطفاله فرصة ثانية، ولذا يجب أن يســـتغل فرصتـــه الجديدة. وبالإضافة إلى ذلك، أصبح شغوفا بالصبى، ويرغـــب فى تعليمه ليس الحروف البابلية - فقط - وإنما الإيمـــان بـــالله وبحكمة الأسلاف. ورغم ذلك لم ينس أن فى بلاده تعيش أمـــيرة أجنبية وإله أجنبى.

ولم تعد ثمة ملائكة تحمل سيوفا مشتعلة ، وله مطلـــق الحرية أن يرحل عندما يريد، ويفعل كل ما يرغب فيه.

كل ليلة يفكر فى الرحيل - وكل ليلة يرفع يديـــه إلـــى السماء ويتوسل:

"قاتل يعقوب طوال الليل، وتلقى البركة عنـــد الفجـــر. وأنا قاتلتك لأيام وشهور ولم تستجب لى. لكن إذا نظرت حولـــك ستعرف أننى المنتصر، فـــ"أكبار" تنهض من بين أطلالها، وأنـــا أعيد بناء ما استخدمت سيف الآشوريين، لتحولـــه إلـــى رمـــاد وتراب.

سأقاتلك حتى تباركنى، وتبارك ثمرة مجـــهودى. وذات يوم سوف تضطر للاستجابة لى".

* * *

حملت النساء والأطفال المياه إلى الحقول ، مكـــافحين الجفاف الذى بدا بلا نهاية.

وفى يوم بعدما غابت الشمس الحارقة بكل جبروتـــها، سمع "إيليا" من يقول: نحن نعمل بلا توقف، ولم نعد نذكـــر آلام تلك الليلة، حتى إننا نسينا أن الآشوريين سيعودون بمجـــرد أن يقهروا تاير وصيدا وبابل وكل المدن الفينيقية . هذا أمر حســن بالنسبة لنا. ولأننا تفانينا فى إعادة بناء المدينة، تصورنــا كــل شئ عاد إلى حالته السابقة، ولم نر نتيجة جهودنا.

تفكر "إيليا" لبعض الوقت فيما سمع، ثم أمر باجتمـــاع الناس فى نهاية اليوم عند سفح الجبل الخامس ليتأملوا غـــروب الشمس.

وانتاب القلق معظمهم لأنهم لم يتبادلوا كلمـــة واحـــدة. ورغم ذلك اكتشفوا أنه من الضرورى أن يدعوا الأفكار تتجـول بلا هدف مثل السحب فى السماء، وبهذه الطريقة يفر القلق مــن قلب كل شخص، ويجدون جميعـــا الإلـــهام والقـــوة اللازمـــة للمستقبل.

٣٤

قال "إيليا" عند استيقاظه إنه لـــن يعمـــل أو يبـــذل أى مجهود، ففى وطنه هذا هو يوم الغفران.

قالت له المرأة : ليس من خطيئة فى روحـــــك . لقــد بذلت أقصى ما فى وسعك.

قال: يجب الحفاظ على العادات. وسوف أحفظها.

رحلت المرأة لتحمل المياه إلى الحقول، وعاد الرجـــال العجائز إلى بناء الجدران وتشكيل الخشب أبوابا ونوافذ.

وتعاون الأطفال فى تشكيل القوالب الطينية الصغـــيرة التى ستسوى فى النار بعد ذلك.

تابعهم "إيليا" والغبطة تملأ قلبه. وبعد ذلك خرج مـــن "أكبار" وسار باتجاه الوادى، حيث تجـــول بـــلا هـــدف يتلـــو الصلوات التى تعلمها فى طفولته.

لم تكن الشمس أشرقت بأكملها. وحيث وقف كان فـــى استطاعته أن يرى ظل الجبل الخامس وقد غطى الوادى، فشعر بهاجس مرعب:

"الصراع بين إله إسرائيل والآلهة الفينيقية قد يستمر لأجيال كثيرة ولآلاف السنين".

* * *

تذكر أنه ذات مساء تسلق إلى قمة الجبل الخامس، وتحدث مع الملاك.

ولكن منذ تدمير "أكبار" لم يعد يسمع أية أصوات من السماء.

استدار ناحية أورشليم وقال: يا الله، اليوم يوم الغفران، وخطاياى كثيرة.

لقد ضعفت لأننى نسيت مصدر قوتى. وتعاطفت عندما كان لا بد أن أكون حازما.

فشلت فى الاختيار لأننى خشيت أن أخطئ الاختيار. واستسلمت قبل أن يحين الوقت لذلك، وتمردت بدلا من أن أشكرك وأحمدك.

وأنت يارب أخطأت كثيرا فى حقى. لقد جعلتنى أعانى أكثر مما أستحق، عندما أخذت من هذا العالم المرأة التى أحببتها، وحطمت المدينة التى آوتنى ، وأربكت رحلة بحثى، وجعلتنى قسوتك أنسى الحب الذى أحمله لك.

وطوال فترة صراعى معك، لم تقبل ما فى مواجهتى من كفاءة.

وإذا قارنا آثامى بما ارتكبته من أخطاء فى حقى، سنجد أنك مدين لى.

ولكن لأن اليوم هو يوم الغفـــران، امنحنـــى عفـــوك لأسامحك، وهكذا ربما نسير جنبا إلى جنب.

وفى هذه اللحظة هبت ريح ، وسمع ملاكه يقول لـــــه: "إيليا"، لقد قمت بعمل حسن، والرب قبل مواجهتك.

انسابت الدموع من عينيه ، فسجد وقبل تربة الـــوادى الجافة، وقال:

أشكرك لأنك أتيت ، لقد تملكنى هاجس بإثم ما فعلت.

قال الملاك: إذا قاتل محارب معلمه، هل فى ذلك إثم؟

قال "إيليا" : لا. فهذه هى الطريقة الوحيـــدة لاكتســـاب المهارة اللازمة له.

قال الملاك: إذن استمر حتى يطلب منك الرب العـــودة إلى إسرائيل. انهض واعمل لإثبات أن صراعك لــــه معنــــى، لأنك قد عرفت كيف تعبر نهر المصير المحتوم.

.. كثيرون سبحوا فيه وغرقوا ، آخرون جرفهم تيـــاره إلى أماكن لم يتوقعوها، أما أنت فواجـــهت العبـــور بعظمـــة، وأرشدت السريان داخل شرايينك، وحولت الألم إلى فعل.

قال "إيليا": يا لك من أعمى مسكين ، وإلا كنت ســترى أن الأيتام والأرامل والعجائز قادرون على إعادة بناء المدينــــة. وقريبا سيعود كل شئ إلى ما كان عليه.

قال الملاك: بدونهم ما كان هذا ليحدث. تذكـــــر أنـــهم دفعوا ثمنا باهظا حتى تتغير حياتهم.

ابتسم "إيليا". فقد كان الملاك على حق.

وأكمل الملاك: فلا تفعل كما يفعل الرجال عند منحهم فرصة ثانية، لا ترتكب نفس الخطأ مرتين. لا تنس الدافع وراء حياتك أبدا.

قال: لن أنسى. وشعر بسعادة غامرة لعودة الملاك.

٣٥

لم تعد القوافل تمر عبر الوادى، فالاشوريون لا بد قد دمروا الطرق وغيروا مسار القوافل التجارية.

يوما بعد يوم تسلق الأطفال برج المراقبة فوق الجدار الوحيد الذى لم يدمر، ودفعهم إلى ذلك الرغبة فى مراقبة المدى وتنبيه القرية عند عودة محاربى العدو.

كان "إيليا" قد خطط لاستقبالهم بشموخ ، ثم يسلم لهم السلطة. بعدئذ يستطيع الرحيل. لكن مع مرور الأيام نما بداخله شعور أن "أكبار" أصبحت جزءا من حياته. وربما لم تكن مهمته إبعاد إيزابيل عن العرش، وإنما كانت البقاء مع هؤلاء الناس لبقية حياته، قائما بدور الخادم الحقير للغزاة الآشوريين. قد يساعد فى إعادة إنشاء طرق التجارة وتعلم لغة العدو.

وخلال لحظات راحته يشرف على المكتبة التى كانت تزداد جمالا كل يوم.

وبينما فى ليلة طواها الزمن؛ بدت المدينة كما لو كانت قد بلغت نهايتها، فإنها تبدو الآن وكأنه من الممكن جعلها أكثر جمالا مما كانت عليه.

فالشوارع المعاد إنشاؤها أوسع، والأسطح أمتن، وثمة نظام عبقرى لنقل المياه من البئر إلى أبعد الأماكن.

كذلك روحه بدأت تشفى ، ففى كل يوم كان يتعلم شيئا جديدا من العجائز والأطفال والنساء . تلك المجموعة التى لم تهجر "أكبار" فقط لاستحالة القيام بذلك، وأصبحت الآن مجموعة منظمة وكفئا.

ولو عرف الحاكم أنهم قادرون على المعاونة هكذا، لابتدع دفاعا آخر عن المدينة وما تعرضت "أكبار" للتدمير.

تفكر "إيليا" للحظة ، أدرك بعدها أنه على خطأ. كانت "أكبار" تحتاج إلى أن تدمر حتى يتمكن الجميع من إيقاظ القوى الكامنة داخلهم.

مضت شهور دون أن تصدر عن الآشوريين أية إشارة تدل على أنهم أحياء.

فى هذه الأونة كاد العمل فى إعادة إنشاء "أكبار" أن يكتمل، وأصبح فى مقدور "إيليا" أن يفكر فى المستقبل.

كانت النساء قد خاطت من قطع الملابس، ثيابا جديدة لهن. وانتهى الرجال العجائز من تشييد المنازل، وبدأوا المساهمة فى تنظيف المدينة.

أما الأطفال فكانوا يعانون عندما يطلب منهم ذلك، لكنهم – عادة – كانوا يقضون اليوم فى اللعب؛ فهو أقصى اهتماماتهم.

عاش "إيليا" مع الصبى فى منزل حجرى صغير أعيد بناؤه فى مكان سبق أن كان مخزنا التجار. واعتاد سكان

"أكبار" الاجتماع كل مساء حول النار فى الساحة الرئيسية، يحكون الحكايات التى سمعوها فى صغرهم، فى وجود الصبى الذى كان يسجل كل شئ على ألواح الطين التى كانت تحمص فى اليوم التالى.

وكانت المكتبات تنمو بسرعة لم يسبق لهم أن شهدوها.

وتعلمت المرأة التى فقدت ابنها الحروف البابلية. وعندما رأى "إيليا" أن المرأة قادرة على ابتداع الكلمات والعبارات ، كلفها بتدريس الحروف الهجائية لبقية الناس، وبهذه الطريقة عند عودة الآشوريين ، يمكن أن يعملوا كمترجمين أو مدرسين. "وهذا بالضبط ما أراد كبير الكهنة أن يمنعه"، قال رجل عجوز ذات ظهيرة اتخذ "المحيط" له اسما؛ لأنه رغب أن يكون له قلب واسع مثل البحر، وهكذا نجت الكتابة البابلية لتهدد آلهة الجبل الخامس.

قال "إيليا": من يستطيع أن يمنع المكتوب؟

كان الناس فى "أكبار" يكدحون طوال اليوم حتى غروب الشمس، وفى المساء يعودون إلى الحكايات.

وكان "إيليا" فخورا بعمله . وبمرور الأيام تزايد هذا الشعور بداخله.

وذات يوم هبط أحد الأطفال المكلفين بالحراسة، وجرى إلى المدينة وهو يصيح : الغبار.. رأيت غبارا على الأفق.. العدو يعود.

تسلق "إيليا" برج المراقبة، وتـأكد مـن صحـة هـذه الأنباء. واستنتج أنهم ربما يصلون إلى أبواب المدينة فى اليـوم التالى.

وفى ظهيرة هذا اليوم قال للسكان: إنـهم لا يجـب أن يمكثوا حتى غروب الشمس، عليهم الاجتماع فى الساحة. وعند انتهاء العمل وقف أمام الناس وأدرك أنهم خائفون، وقال: اليـوم لن نحكى أية حكايات أو نتحدث عن مسـتقبل "أكبـار"، بـل سنتحدث عن أنفسنا. ولم ينطق أحد بكلمة.

وأكمل "إيليا" : منذ فترة، وكان القمر بدرا يتلألأ فـى السماء. وفى هذه الليلة، ما شهدناه جميعا ونـأبى أن نتقبلـه ؛ حدث رغم ذلك: دمرت "أكبار".

وعند رحيل الجيش الأشورى كان أفضل رجالنـا قـد ماتوا.

أما الذين فروا فقد رأوا أنه من العبـث البقـاء هنـا، وقرروا الرحيل.

وبقى العجائز والأرامل والأيتام.. بلا نفع.

انظروا حولكم. الميدان أجمل مما كان، والبنايات أكـثر صلابة، والطعام يقسم، وكل فرد يتعلم الكتابة البابليـة . وفـى مكان ما فى هذه المدينة ثمة مجموعة من الألواح سجلنا عليـها حكاياتنا، وهكذا ستذكر الأجيال القادمة ما قمنا به.

واليوم نعرف أن العجائز والأرامل والأيتـام رحلـوا، وتركوا مكانهم مجموعة شباب مـن كـل الأعمـار، ممتلئيـن بالحماس، أعطوا اسما ومعنى لحياتهم.

وفى كل لحظة من إعادة البناء كنا نعرف أن الأشوريين سيعودون، وأننا سنضطر ذات يوم إلى تسليم المدينة لهم، ومعها نسلم مجهودنا وعرقنا وبهجتنا عندما نراها أجمل من ذى قبل.

أضاءت النيران الدموع التى تحدرت على وجوه البعض. حتى الأطفال الذين اعتادوا اللعب خلال الاجتماعات المسائية ، كانوا ينصتون بشغف إلى كلماته . أكمل "إيليا" : كل هذا لا يهم. لقد قمنا بواجبنا تجاه الله لأننا قبلنا تحديه، وشرف التصارع معه. فقبل هذه الليلة حاول أن يحفزنا وقال لنا: سيروا!. لكننا لم نهتم به . لماذا؟ لأن كلا منا كان قد قرر ما سيكون عليه مستقبله.

كنت أفكر فى إزاحة إيزابيل عن العرش، والمرأة التى تدعى الآن (إعادة المواجهة) أرادت أن يصبح ابنها بحارا ، والرجل الذى يحمل اليوم (الحكمة) اسما، كانت كل رغبته أن يقضى بقية حياته يشرب الخمر فى الساحة.

اعتدنا الأسطورة المقدسة للحياة ولم نمنحها سوى أهمية ضئيلة.

عندئذ قال الرب : "لن يسيروا ؟ إذن ليكونوا عاطلين بلا فائدة زمنا طويلا".

فقط حينئذ فهمنا رسالته. بعد أن أطاحت أسلحة الأشوريين بشبابنا، وأطاح الجبن برجالنا الناضجين الذين ما زلوا عاطلين - أينما كانوا - لأنهم تقبلوا لعنة الرب.

أما نحن فتصارعنا مع الله. تماما مثلما نتصارع مع الرجال والنساء الذين نحبهم فى حياتنا. وهذا الصراع مع المقدس هو ما يمنحنا البركة ويجعلنا ننضج .

لقد تشبثنا بالفرصة التى لاحت لنا فى المأساة، وقمنا بواجبنا تجاهه، بإثباتنا أننا نستطيع إطاعة أمره بالسير، ففى أسوأ الظروف واصلنا التقدم.

ثمة لحظات يطلب فيها الرب أن يطاع، بينما فى لحظات أخرى يرغب فى اختبار إرادتنا، فيتحدانا لنفهم حبه.

وعرفنا هذه الإرادة عندما دكت جدران "أكبار"، لأنها فتحت آفاقنا وسمحت لكل منا بأن يرى قدراته . وهكذا توقفنا عن التفكير فى الحياة، واخترنا أن نعيشها .. والنتيجة كانت حسنة.

رأى "إيليا" أن عيون الناس تلمع من جديد. لقد فهموا.

فأكمل : غدا سوف أسلم "أكبار" بلا معركة، وحينئذ أكون حرا، وأرحل عندما أريد، لأننى أديت ما توقعه الله منى.

ولأن دمى وعرقى وعشقى الوحيد؛ مختلطة بأرض هذه المدينة، قررت البقاء هنا بقية عمرى، لأمنع تدمير المدينة ثانية.

ولكم أن تقرروا ما تشاءون ، لكن لا تنسوا شيئا واحدا: أنتم جميعا أفضل مما تعتقدون. فاغتنموا الفرصة التى منحتها المأساة لكم. ليس باستطاعة الجميع أن يفعلوا ذلك.

ونهض "إيليا" منهيا اللقاء. وقال للصبى إنه سيعود متأخرا، ولذا يجب أن يأوى للفراش دون انتظار عودته.

* * *

ذهب "إيليا" إلى المعبد، المكان الوحيد الذى نجا من التدمير ولهذا لم تكن ثمة حاجة لإعادة بنائه ، وذلك رغم أن الأشوريين أخذوا معهم تماثيل الآلهة.

بكل احترام لمس الحجر الذى، حسب التقاليد، يشير إلى البقعة التى غرس فيها أحد الأسلاف عصا ولم يستطع أن ينزعها ثانية.

وفكر كيف أن إيزابيل قد شيدت أماكن مثل هذه في وطنه، وبعض شعبه ينحنى أمام بعل وأربابه.

مرة ثانية انتابه الشك وامتلك روحه، بأن الحرب بين إله إسرائيل وآلهة الفينيق ستستمر فترة طويلة تفوق قدرته على التخيل.

وكما جاء فى رؤيته، رأى النجوم تعبر الشمس ممطرة الموت والدمار على كلا البلدين. كان الرجال الذين يتحدثون لغات غريبة يركبون حيوانات من حديد ويتبارزون وسط السحب.

سمع ملاكه يقول : لا يجب أن ترى هذا الآن، لأن الوقت لم يحن.

إذهب وانظر من النافذة.

فعل "إيليا" ما أمر به . وفى الخارج كان القمر بدرا يضئ شوارع ومنازل "أكبار"، ورغم تأخر الوقت سمع حوارات وضحكات بين سكان المدينة.

فحتى وهم فى انتظار عودة الآشوريين، احتفظ الناس بإرادة الحياة، وكانوا متأهبين لمواجهة مرحلة جديدة في حياتهم.

رأى طيفا وأدرك أنه للمرأة التى أحبها ، وقد عـــادت الآن لتسير بفخر فى مدينتها. ابتسم لشعوره بأنها تلمس وجهــه. بدت كما لو كانت تقول: أنا فخورة ، فما زالت "أكبار" جميلــة بحق.

شعر برغبة ملحة فى البكاء، عندئذ تذكر الصبى الـذى لم يذرف دمعة لموت أمه. كبح تنهداته وفكر مجددا فى أجمــل أجزاء الحكاية التى عاشاها معا منذ اللقاء عند أبواب المدينـــة، حتى اللحظة التى كتبت فيها كلمة (حب) على لوح من الطيــن. وثانية أصبح يستطيع أن يرى ملابسها مقعدها وأنفها الدقيق.

قال: أخبرتنى أنك أكبار. وها أنا قـــد اعتنيــت بــك، شفيت جروحك ، والآن أعيدك للحياة. فعسى أن تكونى ســعيدة بين رفاقك الجدد.

وارغب أن أخبرك شيئا ما: أنا أيضا كنت "أكبـــار"، ولم أدر.

.. أدرك أنها تبتسم له.

ومنذ زمن بعيد محت رياح الصحراء آثـــار خطونـــا على الرمال. ورغم ذلك فى كل لحظة من وجودى أذكـــر مـــا حدث، وأشعر بك تهيمين فى أحلامى وواقعى. أشكرك لأنـــك عبرت فى طريقى.

ونام "إيليا" هناك فى المعبد، شاعرا بأصـــابع المـــرأة تداعب شعره.

٣٦

رأى قائد القافلة جماعة من الناس غاضبة ، تقف في منتصف الطريق. وظنا منه أنهم لصوص، أمر القافلة بالتأهب للقتال.

سألهم: من أنتم؟

أجاب رجل له لحية وعينان تبرقان: نحن شعب "أكبار".

ولاحظ قائد القافلة أن الرجل يتحدث بلكنة أجنبية ، وقال له: "أكبار" دمرت . ونحن مكلفون من حكومتي صيدا وتاير" بالبحث عن بئر حتى تتمكن القوافل من عبور الوادى ثانية. فالاتصال مع بقية المدن لا يمكن أن يظل مقطوعا للأبد.

قال الرجل ذو اللحية : "أكبار" ما زالت موجودة. لكن أين الآشوريون؟

قال قائد القافلة ضاحكا: العالم بأسره يعرف أين هم الآن. إنهم يجعلون الأرض أكثر خصوبة . وقد تغذت على أجسادهم الطيور والحيوانات الضارية منذ فترة طويلة.

قال الرجل: لكنهم كانوا جيشا قويا.

قال قائد القافلة: لا أهمية لقوة أو لجيش، إذا ما اكتشفنا المكان الذى سيهاجمونه . و"أكبار" أرسلت تحذيرا باقترابهم، وهكذا أعدت "صيدا وتاير" كمينا لهم عند نهاية الوادى. ومن لم يموتوا فى المعركة، باعهم بحارتنا كعبيد.

ابتهج أهل "أكبار" وتبادلوا الأحضان، وهم يبكون ويضحكون فى ذات الوقت. قال التاجر بإصرار: من أنتم أيها الناس؟ وأشار إلى قائد الجماعة ذى اللحية وقال: ومن أنت؟

وكان الرد: نحن محاربو "أكبار" الشباب.

* * *

بدأ موسم الحصاد الثالث، وقد أصبح "إيليا" حاكم "أكبار".

وواجهته مقاومة هائلة فى البداية ، خاصة وأن الحاكم السابق حاول العودة واستعادة موقعه ثانية، حسب ما تمليه عليه العادات والتقاليد.

ورغم ذلك رفضه سكان المدينة، وهددوا طوال أيام بتسميم مياه البئر.

وفى النهاية استجابت السلطات الفينيقية لمطالبهم ، فلا غنى عن المياه التى تقدمها "أكبار" للمسافرين، خاصة وأن حكومة إسرائيل كانت تحت سيطرة أميرة "تاير".

وبإعطاء موقع الحاكم الإسرائيلى، بدأ القادة الفينيقيون يسعون إلى تعزيز تحالف تجارى أكثر قوة.

وانتشرت الأخبار فى المنطقة، عـــن طريـــق قوافــل التجارة التى عادت لرحلاتها من جديد.

وفى إسرائيل قلة هى التــــى اعتــبرت "إيليــا" أســوأ الخونة، ورغم ذلك فعند اللحظة المناسبة ستتخلص إيزابيل مــن هذه المقاومة ليعم السلام المنطقة. وكانت الأميرة راضيــــة لأن ألد أعدائها أصبح فى النهاية أعظم حلفائها.

* * *

سرت شائعات عن عـــودة الأشـــوريين مـــن جديـــد، وشيدت كل الجدران المحيطة بأكبار. وأنشئ نظام دفاع جديـــد، مع وجود حراس ومستكشفين ينتشرون بين (تـــاير) و"أكبـــار". وهكذا فعند محاصرة أحد المدن يصبح فى اســــتطاعة المـــدن الأخرى أن ترسل القوات برا، وتضمن وصول الطعام بحرا.

وكان الرخاء قد عم "أكبـــار" بشـــكل غـــير مســـبوق، فالحاكم الإسرائيلى ابتدع نظاما صارما أساسه الكتابة ، لتنظيـــم الضرائب والتجارة. والـــتزم ســـكان "أكبـــار" بـــهذا النظـــام مستخدمين أساليب جديدة للمتابعة، وكذلك عملوا بصـــبر علـــى حل المشكلات التى طرأت.

النساء قسمن وقتهن بين رعاية المزروعات وأعمـــــال النسيج.

فطوال فترة العزلة حـــاولوا الاستفادة بـــالقليل مـــن الملابس التى تبقت ، وابتكروا نماذج جديـــــدة مـــن الزخرفـــة والتطريز. وعند عودة التجار إلى المدينة فتنتهم التصميمـــات، وطلبوا كميات كبيرة منها.

كذلك تعلم الأطفال الكتابة البابلية، وكان "إيليا" على يقين من أن هذا سوف يساعدهم ذات يوم.

وكما اعتاد دائما قبل الحصاد، تجول فى الحقول وقت الظهيرة، يسبح بحمد الله على هباته التى لا تحصى والتى وهبها له طوال هذه السنين.

وشاهد الناس يحملون سلالا ممتلئة بالحبوب، وحولهم الأطفال يمرحون . لوح لهم، وردوا عليه تحيته.

مبتسما سار نحو الحجر حيث منذ زمن بعيد، قدم له لوح من الطين مكتوب عليه كلمة (حب). كانت هذه عادته. يزور هذه البقعة كل يوم ليتابع غروب الشمس ويستدعى كل لحظة قضياها معا.

٣٧

وبعد أيام كثيرة، كان كلام الرب إلى "إيليا" فى السنة الثالثة، قائلا : اذهب وتراء لأخاب فأعطى مطرا على وجه الأرض.

٣٨

من فوق الصخرة حيث جلس، رأى "إيليا" يرتعد أمام عينيه.

أظلمت السماء للحظة ، لكن سرعان ما أشرقت الشمس من جديد.

ورأى "إيليا" نورا، وكان ملاك الرب أمامه.

سأله "إيليا" : ماذا حدث؟ هل سامح الرب إسرائيل؟

قال الملاك : لا. إنه يريدك أن تعود لتحرر الناس. صراعك معه انتهى. هو يباركك من هذه اللحظة. ولقد تركك ترحل، لتكمل عمله في هذه الأرض.

أصيب "إيليا" بالدهشة، وقال : الآن - عندما وجد قلبى السلام والطمأنينة ثانية؟!

قال الملاك: تذكر الدرس الذى علمه لك الرب ذات مرة. وتذكر الكلمات التى قالها الرب لموسى: "وتتذكر كل الطريق التى فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة فى

القفر لكى يذلك ويجربك ليعرف ما فى قلبك أتحفظ وصايـــاه أم لا".

"لئلا إذا أكلت وشبعت وبنيت بيوتـــا جيـــدة وســـكنت وكثرت بقرك وغنمك وكثرت لك الفضة والذهب. وكـــثر كـــل مالك يرتفع قلبك وتنسى الرب إلهك".

استدار "إيليا" للملاك ، وسأله: ماذا عن "أكبار"؟

أجابه الملاك: ستبقى بدونك ، لأنك تركت عليها وريثـا ستبقى لسنوات طويلة. واختفى ملاك الرب.

٣٩

وصل "إيليا" والصبى إلى سفح الجبل الخامس. وكانت الأعشاب قد نمت بين صخور المذبح، فمنذ موت كبير الكهنة لم يصعد أحد إلى هناك .

قال "إيليا": لنتسلقه.

قال الصبى: محرم هذا.

قال "إيليا": نعم، لكن هذا لا يعنى أنه خطير.

وأمسكه من يديه، وتسلقا باتجاه القمة. ومن حين لآخر كانوا يتوقفون للنظر إلى الوادى بأسفل. كان انقطاع المطر قد ترك آثاره على المدينة وما يحيط بها. وباستثناء الحقول المزروعة حول "أكبار"، بدا كل شئ قاحلا مثل صحراء مصر.

قال الصبى: سمعت أصدقائى يقولون إن الآشوريين سيعودون ثانية.

قال "إيليا" : ربما . لكن ما فعلناه جدير بالثناء، لقد كانت الطريقة التى اختارها الرب ليعلمنا.

قال الصبى: لا أعرف، فمهما كان غضبه منا، لا يجب أن يكون بهذه القسوة.

قال "إيليا": لابد أن اجرب وسائل اخرى قبل أن يكتشف أننا لا ننصت له.

لقد اعتدنا حياتنا، ولم نعد نقرأ كلماته.

سأله الصبى: أين تكتب هذه الكلمات؟

قال "إيليا": فى العالم من حولنا. فقط كن حساسا تجاه ما يحدث فى حياتك، وسوف تكتشف مكانها فى كل لحظة من اليوم، فهى يخفى كلماته ومشيئته. فاسع للقيام بما يطلبه منك، فهذا وحده هو الدافع وراء وجودك فى العالم.

قال الصبى: إذا اكتشفتها، سوف أحفظها على ألواح الطين.

قال "إيليا": لتفعل . لكن احفظها أولا فى قلبك، فهناك لن تحرق أو تدمر. وسوف تحملها معك أينما ذهبت.

وسارا لبعض الوقت، حتى أصبحت السحب شديدة القرب منهم.

أشار الصبى إلى السحب وقال: لا أريد الصعود إلى هناك.

قال "إيليا": لن تؤذيك ، فهى مجرد سحب. تعال معى. وأمسك يده وتسلقا. شيئا فشيئا وجدا نفسيهما داخل ضباب كثيف. التصق به الصبى، ورغم محاولات "إيليا" للحديث معه من حين لآخر، لم ينطق الصبى بكلمة . وسارا بين الصخور العارية لقمة الجبل.

قال الصبى متوسلا: لنعد.

قرر "إيليا" ألا يضغط على الصبى، يكفيه ما واجهه من صعوبات ضخمة وهلع خلال الفترة القصيرة الماضية من حياته . واستجاب للصبى وهبطا بين الضباب، وأصبح باستطاعتهما تمييز الوادى أسفلهما.

قال "إيليا": يوما ما، ابحث فى مكتبة "أكبار" عما كتبته لك. كتاب عنوانه (تدريبات محارب النور).

تساءل الصبى: هل أنا (محارب النور)؟

سأله "إيليا" : ما هو اسمى؟

قال الصبى: الحرية.

قال "إيليا" : اجلس هنا جوارى ، وأشار إلى حجر، ثم أكمل: لا أستطيع أن أنسى اسمى. ولابد أن أكمل مهمتى، حتى ولو كان بقائى إلى جوارك هو كل ما أتمناه فى هذه اللحظة.

وهذا هو سبب إعادة بناء " أكبار"، لتعلمنا ضرورة المضى قدما، رغم الصعوبة التى قد تبدو على ذلك.

قال الصبى: سترحل.

سأله "إيليا" باندهاش: كيف عرفت؟

قال الصبى: كتبت ذلك على لوح ليلة أمس، بعد أن أخبرنى به شئ ما، ربما يكون أمى أو ملاكا ، لا أعرف. كل ما هنالك أننى شعرت به فى قلبى.

مسح "إيليا" رأس الصبى وقال - برضا - : لقد تعلمت قراءة مشيئة الرب.

ولم تعد تحتاج من يفسر أى شئ لك.

قال الصبى : كل ما قرأته هو الحزن فى عينيك. لم يكن صعبا، لاحظه أصدقاء آخرون.

قال "إيليا": هذا الحزن الذى قرأته فى عينى جزء من حكايتى. مجرد جزء صغير سيستمر لأيام معدودة. وغدا عندما أرحل إلى أورشليم ، لن تكون له نفس القوة السابقة، وسيختفى شيئا فشيئا. الحزن لا يدوم إلى الأبد، خاصة عندما نسير فى الاتجاه الذى طالما رغبناه.

سأله الصبى: هل رحيلك أمر لا مفر منه؟

أجابه "إيليا" : من الضرورى معرفة أنه عند انتهاء مرحلة فى حياة المرء، فإن التشبث بها بعد انتهاء الحاجة إليها، سيفقد ما تبقى من الحياة البهجة والمعنى، وسيعرض الحواس إلى خطر التشوش من قبل الرب.

قال الصبى: الرب قاس.

قال "إيليا" : فقط مع الذين يختارهم.

* * *

تأمل "إيليا" المدينة فى الأسفل وقال: نعم، أحيانا يكون الرب شديد القسوة، ولكن لا تتجاوز قسوته قدرة المرء على الاحتمال. ولم يكن الصبى يدرى أنهما يجلسان حيث استقبل "إيليا" ملاك الرب وتعلم منه كيف يعيد الصبى للحياة.

سأله "إيليا" : هل ستفتقدنى ؟

قال الصبى: أخبرتنى أن الحزن يتلاشى عندما نمضى قدما. وما زال هناك الكثير حتى تصل "أكبار" إلى الجمال الذى تستحقه أمى. فهى تتجول فى طرقاتها.

قال "إيليا": لتعد إلى هذا المكان كلما احتجتني . ولتنظر ناحية أورشليم. سأكون هناك، أسعى لمنح اسمى معنى "الحرية". ولا تنس أن قلوبنا مرتبطة ببعضها إلى الأبد.

سأله الصبى: ألهذا السبب جئت بى إلى قمة الجبل الخامس؟ لأرى إسرائيل!

قال إيليا: ولترى الوادى، المدينة، بقية الجبال، والصخور والسحب.

ودائما كان الأنبياء يصعدون ليتحاوروا مع الرب. ودائما كنت أتساءل لماذا يفرض ذلك؟ والآن عرفت الإجابة. فعندما نكون فوق مرتفع نستطيع رؤية كل شئ دوننا صغيرا، وعندئذ يفقد زهونا وحزننا أهميتهما .

حتى لو تم احتلالنا أو تضليلنا، سيبقى هذا فى الأسفل هناك. من فوق قمم الجبال ترى كم العالم كبير، وكم هى واسعة آفاقه.

نظر الصبى حوله. فمن فوق قمة الجبل الخامس يستطيع أن يشم رائحة البحر الذى يغمر شطآن تاير. ويستطيع سماع الرياح الصحراوية القادمة من مصر.

قال الصبى لـ "إيليا": يوما ما سأحكم "أكبار". وأدرك كم هى مسئولية ضخمة، لكننى أعرف كل زاوية فى المدينة، وأعرف ما يجب تعييره.

قال "إيليا": إذن غيره. لا تترك الأشياء على مثاليتها.

قال الصبى: ألم يكن فى استطاعة الرب أن يختار طريقة أفضل ليكشف لنا كل هذا ؟ لقد مضى وقت طويل، وأنا أعتقد أنه شرير.

لم ينطق "إيليا". فقط تذكر حوارا حدث منذ سنوات بعيدة مع "اللاوى".

بينما كان الاثنان ينتظران الموت بأيدى جنود إيزابيل.

سأله الصبى بإصرار: هل الرب شرير؟

أجابه "إيليا" : الرب هو كل القوة. باستطاعته فعل اى شئ، ولا شئ محرم عليه، لأنه فى هذه الحالة لا بد من وجود شخص آخر أكثر قوة منه ليمنعه من القيام بأشياء محددة. وبالطبع سأفضل عبادة الرب الأقوى.

صمت "إيليا" لحظات، ليسمح للصبى أن يستوعب كلماته. وبعد ذلك أكمل: وهكذا، فبسبب قوته المطلقة ، فإنه يختار أن يفعل الخير.

وعندما نصل إلى نهاية حكايتنا سنتبين أنه فى كثير من الأحيان يتخفى الخير فى الشر، ورغم ذلك يظل خيرا، ويظل جزءا من مشيئته وتدبيره للإنسانية.

أمسك يد الصبى ، وهبطا الجبل فى صمت.

* * *

فى هذه الليلة، نام الصبى بين ذراعى "إيليا" ، وبمجرد بزوغ الفجر أبعد "إيليا" – بحرص – الصبى عن حضنه حتى لا يوقظه. وسرعان ما ارتدى الثوب الوحيد الذى يمتلكه، ورحل.

وفى الطريق ، التقط قطعة خشب من الأرض واستخدمها كعصاة، وقرر ألا يسير بدونها أبدا، لأنها ما يذكره بصراعه مع الرب وبتدمير وإعادة بناء "أكبار".

ودون أن ينظر خلفه ، استمر فى طريقه باتجاه إسرائيل.

٤٠

بعد خمس سنوات، عاود الآشوريين غـــزو المدينـــة، وفى هذه المرة كان الجيش أكثر احترافا، وقادته أكـــثر حنكـــة وكفاءة.

وسقطت كل المدن الفينيقية تحت سيطرة الغـــزاة، مـــا عدا "تاير" و"صرفة" التى يدعى سكانها بـــ "الأكبار".

وأصبح الصبـــى رجـــلا يحكـــم المدينـــة، واعتـــبره معاصروه بمثابة حكيم راجح العقل . ومات بعد عمـــر طويـــل وهو محاط بالأعوان والأحباب، وكان يقول دائمـــا: "لابـــد أن نحفظ المدينة جميلة وقوية، لأجل أمى التى ما زالـــت تجـــوب الشوارع".

وبفضل نظام الدفاع المشترك بين "تاير" و"صرفة" لـــم يحتلهما الملك الآشورى (سينخرب) حتى عـــام (٧٠١ ق.م) ، قرابة ١٦٠ سنة بعد الأحداث التى احتواها هذا الكتاب.

وبداية من هذا الوقت لم تستعد المدن الفينيقية أهميتـــها ومكانتها، وبدأت تتعرض لسلسلة مـــن الغـــزوات ، بواســـطة:

البابليين الجدد، والفرس، والمقدونيين، والسلوديين، وأخيرا الرومان.

ورغم ذلك ما زالت هذه المدن موجودة حتى وقتنا الحالى، لأنه حسب التقاليد القديمة؛ لم يختر الرب بشكل عشوائى الأماكن التى رغب أن يراها معمورة. تاير، صيدا، بابل.. .. ما زالت جزءا من لبنان الذى ما زال - حتى - الآن - ميدانا للمعارك.

٤١

عاد "إيليا" إلى إسرائيل، واستدعى الأنبياء جميعا إلى جبل الكرمل، وهناك طلب منهم أن ينقسموا إلى مجموعتين.

هؤلاء الذين عبدوا بعل، والذين آمنوا بالله.

واتبع تعليمات الملاك، فقدم ثورا للمجموعة الأولى وطلب منهم أن يتضرعوا إلى السموات لتقبله آلهتهم .

ويقول الكتاب المقدس:

(وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال ادعوا بصوت عال لأنه إله. لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فيتنبه.

فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم. ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ).

عندئذ أخذ "إيليا" حيوانه وقدمه إلى الرب، متبعا تعليمات الملاك.

وفى هذه اللحظة سقطت النار من السماء "وأكلت المحرقة والحطب والحجارة". ومنذ هذه اللحظة اشتعلت الحرب الأهلية.

وامر "إيليا" بإعدام كل الأنبياء الذين خانوا الرب، وبحثت إيزابيل عنه فى كل مكان لتقتله . وفر "إيليا" إلى الجانب الشرقى من الجبل الخامس - الذى يواجه إسرائيل.

غزا السوريون المدينة وقتلوا الملك (اخاب)، زوج أميرة تاير، بسهم انطلق بطريق الخطأ ودخل عبر فتحة فى درعه الواقى.

لجأت إيزابيل إلى قصرها، وبعد عدة ثورات شعبية ، وصعود حكومات وسقوطها، توجهوا للقبض عليها، لكنها فضلت ان تقفز من النافذة، على أن تسلم نفسها للرجال الذين أرسلوا للقبض عليها.

وظل "إيليا" على الجبل حتى اخر أيامه.

ويقول الكتاب المقدس : إنه ذات ظهيرة ، عندما كان إيليا يتحدث إلى (الياشع) - النبى الذى اشتق اسمه من اسم "إيليا" ، عندئذ ظهرت عربة من نار، وخيول من نار، وباعدت بينهما، ورفع "إيليا" بواسطة ريح كالإعصار إلى السماء.

وبعد قرابة ثمانية قرون، أمر يسوع كلا من بطرس وجيمس ويوحنا، بتسلق الجبل.

وينسب الإنجيل - كما دونه (متى) - إلى يسوع:

"وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت، ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه".

وطلب يسوع من الحواريين ألا يتحدثوا عن هذه الرؤية حتى يقوم ابن الإنسان من بين الأموات ، لكنهم أجابوا بأن ذلك سيحدث فقط عندما يعود "إيليا".

ويحكى إنجيل (متى) - الأصحاح ١٧ - من الآية (١٠ إلى ١٣) بقية الحكاية:

"وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغى ان يأتى أولا.

فأجاب يسوع وقال لهم إن "إيليا" يأتى أولا ويرد كل شئ. ولكنى أقول لكم إن "إيليا" قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا . كذلك ابن الإنسان أيضا سوف يتألم منهم. حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان".

٤٢

وحبلت مريم بلا خطيئة، فصلى لأجلنا نحــــن الذيــن نتوسل إليك، أمين.

* **باولو كويلهو:** كاتب برازيلى ولد عام (١٩٤٧) فى ريودى جانيرو

وهو يعتبر بمثابة ظاهرة أدبية، فهو من أكثر الكتاب شعبية فى العالم. وبلغت مبيعات كتبه حوالى (١٥) مليون نسخة فى شتى أنحاء العالم . وترجمت كتبه إلى (٣٤) لغة.

تسلم جوائز أدبية عديدة من بلدان كثيرة.

وأصبحت كتبه ضيفا دائما على قوائم أفضل مبيعات فى: البرازيل - بريطانيا - أمريكا - فرنسا - إيطاليا - ألمانيا - اليونان.

رواية "الجبل الخامس":

- هذه الرواية تعتبر إعادة حكى فذة لحكاية (ايليا) النبى الصغير الذى أجبر على الفرار من بيته ووطنه ليواجه سلسلة لا منتهية من المحن. وأخيرا وجد الملاذ والحب، فقط لتتحطم أحلامه مرة أخرى. ونتيجة لذلك لم يفقد فقط حبه الأرضى المادى ، بل اهتز إيمانه بشدة وبدأ يشك فى وجود الرب.
- حول (كويلهو) محن (إيليا) إلى قصة مشوقة وملهمة، باستحضارها الرائع للأفكار الكونية الرئيسية عن انتصار الإيمان والحب على المعاناة.
- فى هذه الرواية يأخذنا (كويلهو) إلى القرن التاسع، إلى الشرق الأوسط المضطرب حيث يصارع النبى (إيليا) ليحفظ إيمانه حيا فى عالم من الثورة الدائمة والطغيان الملكى والأرباب الوثنية.

"الجبل الخامس"

- صدرت عام ١٩٩٨.
- عن (هاربر كولينز) فى نيويورك، وفى بريطانيا.
- ترجم الرواية من البرتغالية إلى الإنجليزية "كليفورد إى. لاندرز".
- أعمال أخرى لـ (باولو كويلهو): الخيميائى، الحج، بجوار نهر بيدرا جلست أبكى.

- تعليقات حول الرواية

١- (كورير دى لاسيرا) إيطاليا:

يقدم "كويلهو" أسطورة القصاص الحكيم.

٢- (لوفيجارو) . فرنسا:

كتابته مثل طريق من الطاقة يقود القراء لملاقاة أنفسهم، ليتجهوا بعد ذلك نحو أرواحهم البعيدة والغامضة.

٣- الإسبكتادور:

ينتشر سحره، وبعد قراءة كتبه يشعر المرء بالسعادة.

هذه الرواية

هى الرواية الثانية التى تترجم إلى العربية للكاتب البرازيلى الظاهرة باولو كويلهو بعد روايته الأولى (الخيميائى - ساحر الصحراء) التى ترجمها الكاتب الكبير بهاء طاهر، وهى الرواية التى جعلت من « باولو كويلهو » واحدا من أكثر الكتاب العالميين شهرة وشعبية، إذ ترجمت إلى ٣٤ لغة ..

وفى « الجبل الخامس » كما فى غيرها من روايات « باولو كويلهو » يحاول الكاتب العودة بنفسه وبقارئه إلى الحقيقة الموصلة لأسطورتنا الشخصية. فهو يختار من قصص الكتاب المقدس قصة النبى الصغير « إيليا » ليسرد من خلالها بطريقته المشوقة والرائعة دراما الصراع الأبدى بين الايمان والحب وبين المعاناة والألم وقد إختار منطقة الشرق الأدنى القديم التى كانت مهداً وحاضنة للحضار والديانات لتجرى فيها أحداث الرواية التى تدور فى عصور ما قبل الميلاد ..

« والجبل الخامس » ككل الأعمال الأدبية الكبير ... ت متعددة على المستوى الميتافيزيقى التاريخى والإنسانى المعا ... وصراعات تلك المنطقة مازالت حية ومستمرة .. لكن التأويلا ... ى أهمية الرواية فى تصويرها المشوق لمعاناة الإنسان من أجل ا ... ره..

... د خميس

